□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في حُبِّ اللهِ والشَّوْقِ إليه □

« المحبَّة هي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافسون ، وإليها شخَصَ العاملون ، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون ، وعليها تفانى المحبُّون ، وبرَوْح نسيهما ترّوح العابدون ؛ فهي قُوت القلوب وغذاء الأرواح وقرَّة العيون ، وهي الحياة التي مَن حُرِمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي مَن فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي مَن عُدِمه حَلَّتْ بقلبه جميعُ الأسقام ، واللَّذَّة التي من لم يظفر بها فعيْشه كله هموم وآلام . وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال ، التي متى خلتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه . تحمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلّا بشِقِّ الأنفس بالغيها ، وتوصِّلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها ،وتُبَوِّئُهُـم من مقاعد الصِّدْق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها . وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب .

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ؛ إذْ لهم من معيَّة محبوبهم أوفر نصيب .

وقد قضىٰ الله ، يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ؛ أن المرء مع من أحبَّ ، فيالها من نعمة على المحبِّين سابغة !!

تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون ، وقد تقدَّموا الركْبَ بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون .

مَـن لـي بمثْلِ سيْرِك المـدلَّلِ   تمشـي رويـدًا وتجي في الأوَّلِ

أجابوا منادي الشوْقَ إذ نادىٰ بهم : حيَّ على الفلاح . وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم ، وكان بذلُهم بالرضا والسماح ، وواصلوا إليه

المسير بالإدلاج والغدو والرواح .

تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم . وإنما يحمَدُ القومُ السُّرىٰ عند الصباح .

أول نقدة من أثمان المحبَّة بذْلُ الروح ، فما للمفلِسِ الجبان البخيل وسوْمَها ؟!

بدَمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثمَنِ

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون ، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المُعسِرون . لقد أقيمتْ للعرْض في سُوق مَن يزيد فلم يرضَ لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخَّر البطَّالون وقام المحبُّون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا ؟ فدارتْ السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ **أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ﴾ [المائدة : ٥٤] . لمّا كثر المدَّعون للمحبَّة طُولبوا بإقامة بيِّنة على صحَّة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم ؛ لادَّعىٰ الخليُّ حرْقَة الشجيّ . فتنوَّع المدَّعُون في الشهود ، فقيل : لا تُقبل هذه الدعوى إلّا ببيِّنة ؛ ﴿ **قل إن كنتم تحبُّون الله فاتبعوني يحببْكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . فتأخر الخلْق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطُولبوا بعدالة البيِّنة بتزكية ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم** ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المحبِّين ، وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبِّين وأموالهم ليستْ لهم ، فهلمُّوا إلى بيعة ﴿ **إنَّ الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة** ﴾ [التوبة : ١١١] . فلمّا عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن ، وجلالة من جرى على يديه عقْد التبايُع ؛ عرفوا قدْر السِّلْعة وأن لها شأنًا ، فرأوا من أعظم الغبْن أن يبيعوها لغيره بثمنٍ بَخْس ، فعقدوا معه بيْعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، وقالوا : « والله لا نقيلك ولا نستقيلك » . فلمّا تمَّ العقْد وسلَّموا المبيع ، قيل لهم : مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا ؛ رددناها عليكم أوفرَ ما

كانت ﴿ **ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠] .

وإذا غُرستْ شجرةُ المحبَّة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ؛ أثمرتْ أنواع الثمار ، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها متصل بسدْرة المنتهى .

لا يزال سعي المحبِّ صاعدًا إلى حبيبه لا يحجُبُه دونه شيء ﴿ **إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **قلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ومنَ الناسِ من يتخذ من دون اللهِ أندادًا يحبُّونهم كحبِّ اللهِ والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونهم أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي « الصحيحيْن » : عن أنسٍ ، عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفي « الصحيحين » أيضًا : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلّا من نفسي . فقال :

---

(١) مدارج السالكين ٣/٦ - ٩ .

« لا يا عمر ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » . فقال : والله لأنت أَحبُّ إليَّ من نفسي . فقال : « الآن يا عمر » .

ومعلوم أن محبة الرسول تابعة لمحبَّة الله عز وجل ، فما الظنُّ بمحبَّة الله عز وجل ؟! .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهنَّ فإنْ علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار** ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

قال ابن عباس في هذه الآية : كانت المرأة إذا أتتِ النبي ﷺ لتُسْلِم ؛ حلّفها بالله ما خرجت من بغض زوج إلّا حبًّا لله ورسوله .

« وفي الصحيحين » : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يُقذف في النار » .

وعن معاذ - في حديث اختصام الملأ الأعلى - عن النبي ﷺ قال : « أتاني ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ؛ يعني في المنام » فذكر الحديث ، وقال في آخره : « قال : سل . قلتُ : اللهمَّ إني أسألك فعْل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردتَ بقوم فتنةً فتوفَّني إليك غير مفتون ، وأسألك حبَّك ، وحبَّ مَن يحبُّك ، وحبَّ كلِّ عمل يقرِّبني إلى حبِّك » . فقال رسول الله ﷺ : « إنها حقٌّ فادرسوها ، ثم تعلموها »[1] .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وقال : حسن صحيح . وخرَّجه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٢٥٨٢ .

وفي « الصحيحين » : عن أنس : أن رجلًا سأل النبيَّ ﷺ ، قال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددتَ لها ؟ » . قال : ما أعددتُ لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنِّي أحبُّ الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أنت مَع من أحببتَ » .

وفي رواية للبخاري : فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : « نعم » . قال أنس : ففرِحْنا يومئذ فرحًا شديدًا .

وفي رواية لمسلم : قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدَّ من قوله : « أنت مع من أحببتَ » .

قال أنس : فأنا أُحبُّ الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قال بعض العارفين : يكفي للمحبِّين شرفًا هذه المعيَّة .

وقال سمنون : « ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « المرءُ مع مَن أحبَّ »[1] . فهم مع الله في الدنيا والآخرة » .

الأسباب الجالِبة للمحبَّة المقوِّية لها :

« الأسباب الجالبة للمحبَّة والمقوِّية لها كثيرة ؛ منها :

الأول : قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أريد به . قال رسول الله ﷺ : « مَن سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله ، فليقرأ في المصحف »[2] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائيّ عن أنس ، ورواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) حسن : رواه البيهقي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن شاهين ، وابن عدي في « الكامل » عن ابن مسعود ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٥ .

الثاني : التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ؛ فإنها توصِّله إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة ؛ كما جاء في الحديث القدسي : « ... ولا يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه » .

الثالث : دوام ذكْرِه على كلِّ حال ؛ باللسان والقلب والعمل والحال . فنصيبه من المحبَّة على قدْر نصيبه من الذِّكْر .

قال ذو النون : مَن شغل قلبَه ولسانَه بالذِّكْر ؛ قذف اللهُ في قلبه نور الاشتياق إليه . وقال إبراهيم بن الجُنيد : كان يُقال : من علامة المحبَّة لله : دوام الذكر بالقلب واللسان ؛ وقلّما ولع المرء بذكْر الله عز وجل إلّا أفاد منه حبَّ الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : أعلى الدرجات أن يكون ذكْر الله عندك أحلىٰ من العسَل ، وأشهىٰ من الماء العذْب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف .

وقال مالك بن دينار : ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكْر الله عز وجل .

يا مـن يذكِّـرُني بعهْـدِ أحبَّتي ... طابَ الحديثُ بذكرهمْ ويطيبُ
أعِدِ الحديثَ عليَّ من جنباته ... إنَّ الحديثَ عن الحبيبِ حبيبُ
ملأَ الضلوعَ وفاضَ عنْ أجنابها ... قلبٌ إذا ذُكِرَ الحبيبُ يـذوبُ
ما زالَ يخفِقُ ضاربًا بجَناحِهِ ... يا ليتَ شعري هلْ تطيرُ قلوبُ؟!

وقال الشاعر :

خطراتُ ذكْري تستثيرُ مودَّتي ... وأحسُّ منها في القلوبِ دبيبًا
لا عضـوَ لي إلّا وفيـهِ محبَّةٌ ... فكأنَّ أعضـائي خُلِقنَ قلـوبَا

الرابع : إيثارُ محابّه على محابِّك عند غَلَبَات الهوىٰ ، والتسنُّم إلى محابِّه وإن صعُب المرتقىٰ .

الخامس : مطالعة القلْب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلُّبه في

رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمَن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة .

عن عائشة : أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية[١]، فكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿ **قُلْ هو الله أحد** ﴾ ، فلمَّا رجعوا ذكَروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « سلوه : لأيِّ شيء يَصنع ذلك ؟ » . فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمٰن ؛ فأنا أحبُّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله ﷺ : « أخبِروه أن الله يحبُّه »[٢] .

السادس : مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع – وهو من أعجبها-: انكسار القلب بين يدي الله تعالى ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

قال الفضل الرقاشي : والله لو جُمع للعابدين جميعُ لذَّات الدنيا بحذافيرها ؛ لكانَ امتهانُ أنفسهم لله بطاعته ألذَّ وأحلى عندهم من ذلك .

الثامن : الخلوة به وقتَ النزول الإلٰهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه . والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبِّين والصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطايبُ الثمر ، ولا تتكلّم إلّا إذا ترجَّحت مصلحة الكلام ، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله عز وجل . فمن هذه الأسباب العشرة وصَل المحبُّون إلى منازل المحبَّة ، ودخلوا على الحبيب ... ومِلاك ذلك كلِّه أمران :

---

(١) السرية : هي القطعة من الجيش ، سُمِّيت سرية ؛ لأنها تسري في خُفْيَة .

(٢) متفق عليه .

١ - استعداد الروح لهذا الشأن :

بدمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ   فمنِ الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ

أو كما قالوا :

أنتَ القتيلُ بكلِّ من أحْبَبْتَهُ   فاخترْ لنفسِكَ في الهوىٰ مَن تصطفي

٢ - وانفتاح عيْن البصيرة . وبالله التوفيق »[1].

الحادي عشر : قطْع علائق الدنيا ، وإخراج حبِّ غير الله من القلب ؛ فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للخلِّ مثلًا ما لم يخرج منه الماء ؛ ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبيْن في جوفه** ﴾ [الأحزاب : ٤] وكمال الحبِّ في أن يحبَّ اللهَ عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاويةٌ من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر ما ينشغل بغير الله ينقص منه حبُّ الله .

الثاني عشر : قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ؛ يجري مجرىٰ وضْع البذْر في الأرض بعد تنقيتها ، ثم يتولَّد من هذا البذر شجرة المحبَّة والمعرفة . ولا يُوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب ، إلا بالفكْر الصافي والذكر الدائم ، والجدِّ البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله ، وفي صفاته وفي ملكوتِ أسمائه وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى :

الأقوياء : ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفِ بربِّك أنه على كلِّ شيء شهيد** ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شهِد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ [آل عمران : ١٨] . وقول الصالح : « عرفتُ ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفتُ ربي » .

---

(١) مدارج السالكين بتصرُّف ، ٣/١٧ - ١٨ .

والضعفاء : ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقَّون منها إلى الفاعل .
وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن ، عند الأمر بالتدبُّر والتفكُّر والاعتبار .

والمعرفة بحْرٌ لا ساحل له ، فلا جَرَم أنَّ تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصْرَ له .

قال بديل بن ميسرة : من عرَف ربَّه أحبَّه ، ومن عرَف الدنيا زهِد فيها .

وقال عبيد الله بن محمد التيمي : التفكُّر في نِعَم الله أفضل العبادة .

« وقال الحسن : أوصيكم بتقوىٰ الله عز وجل ، وإدمان التفكُّر ؛ فإنه مفتاح خِلال الخير كله ، وبه يخصُّ اللهُ كلَّ موفَّق . واعلموا أن خير ما ظفر به مدرك من تفكَّر بخالصة الله ، وشرب كأس حبِّه ، وإنّ أحباءَ اللهِ هُمُ الذين ظفروا بطيب الحياة ، وذاقوا لذَّة نعيمها ، بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم ، وما وجدوا من حلاوة حبِّهِ في قلوبهم ، ولا سيما إذا خطر على بال أحدهم ذكْر مشافهته ، وكشْف ستور الحُجُب عنه في المقام الأمين ، والسرور الدائم ، وأراهم جلاله ، وأسمعهم لذَّة منطقه ، وردَّ عليهم جواب ما ناجَوه به أيّام حياتهم ، إذْ قلوبهم به مشغوفة ، وإذ مودَّتهم إليه معطوفة ، وإذْ هم له مُؤْثِرون ، وإليه منقطِعون ، فليُبْشر المصفُّون له وُدَّهم ، بالمنظر العجيب بالحبيب ، فوالله ما أراه يحلُّ لعاقلٍ ولا يجمُلُ به أن يستوعبه حبُّ أحدٍ سوىٰ حبِّ الله عز وجل »[1] .

لو تفكَّر الإنسان في قول مخلوق لمخلوق :

وكنتُ أرى أنْ قدْ تناهىٰ بيَ الهوىٰ　　　إلىٰ غايةٍ ما فوْقَها لي مطلَبُ

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص٥٦ .

فلـمَّا تـلاقـيْنا وعـايـنْـتُ حُـسْـنَـهـا   تيقَّـنـتُ أني إنـمـا كنـتُ ألعَـبُ

فكيف بالخالق الملك ، الحقِّ العظيم ، الذي لا يُقدَّر حقّ قدره ، ولا يحيط خلْقُه بِهِ عِلْمًا ، ولا يُحصون ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

أمَا يكفينا قولُ ربِّنا لملائكته الذين يلتمسون مجالس الذكر : « فكيف لو رأوني ؟ » . فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة ، وأشدَّ لك تمجيدًا وتحميدًا ، وأكثر لك تسبيحًا .

السبب الثالث عشر : معاملة الله بالصدق والإخلاص ومخالفة الهوىٰ .

قال بِشْر الحافي : قال فتح الموصلي : مَن أدام النظر بقلبه ، ورَّثه ذلك الفرح بالمحبوب . ومَن آثره على هواه ورّثه ذلك حبَّه إياه . ومَن اشتاق إليه وزهد فيما سواه ، ورعىٰ حقَّه وخافه بالغيب ، ورَّثه ذلك النظرَ إلى وجهه الكريم .

السري السقطي من سادات المحبِّين الصادقين :

انظر رحمك الله إلى صدْق السري السقطي مع الله ، وكيف ورَّثه ذلك الحبَّ لله . فقد كان للسري دكّان فاحترق السوق الذي فيه الدكَّان ، ولم يحترق دكانه ، فأُخبر بذلك ، فقال : الحمد لله . ثم تفكَّر في ذلك ، فرأى أنه قد سُرَّ بعطبِ الناس وسلامته ، فتصدَّق بما في دكَّانه ، فشكر اللهُ له ذلك ورقّاه إلى درجة المحبَّة .

سئل رحمه الله عن حاله فأنشد :

مَن لم يبِتْ والحبُّ حشوُ فؤادِه   لم يدرِ كيفَ تفتُّتُ الأكبادِ

« وبلغ من أمره أنه لمّا مرض رفع ماؤه إلى الطبيب ، فلمّا رآه الطبيب ، قال : هذا عاشق.فصُعق حامِل الماء ، وغُشي عليه .

ونظروا إلى جسده مرة وكان سقيمًا مضنيًا ، فقال : لو شئتُ أن أقول :

هذا كله من محبته ؛ لَقلتُ »[١] .

درجـاتُ المـحبَّة :

قال الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

المحبة الأولى: محبَّة تقطعُ الوساوس، وتَلِذُّ الخدمة، وتُسَلّي عن المصائب»:

قال ابن القيم : « إن الوسواس والمحبَّة متناقضان . فإنَّ المحبَّة تُوجب استيلاء ذكْر المحبوب على القلب . والوساوس تقتضي غيبته عنه ، حتى توسوس له نفسُه بغيره . فبيْن المحبَّة والوساوس تناقُضٌ شديد ، كما بين الذكْر والغفلة ، فعزيمة المحبة : تنفي تردُّد القلب بن المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوساوس . وهيهات أن يجد المحبُّ الصادق فراغًا لوسواس الغيْر ، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه . وهل الوسواس إلّا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى ؟ ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس ؟!

لا كـان مَن لسـواكَ فيهِ بقيَّةٌ   فيها يُقَسِّمُ فكرَهُ ويسـوسُ

والمحبُّ يلتذُّ بخدمة محبوبه ، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخليّ في أثناء الخدمة ، وهذا معلوم بالمشاهدة .

والمحبُّ يجد في لذَّة المحبة ما يُنسيه المصائب ، ولا يجد مِن مسِّها ما يجد غيره ، حتى كأنه قدِ اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلْق ، بل يقوى سلطان المحبَّة ، حتى يلتذّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يُصيبه بها حبيبه أعظم من الْتذاذِ الخلي بحظوظه وشهواته ، والذوْق والوجود شاهد بذلك . والله أعلم »[٢].

قال الهروي : « وهي محبَّة تَنبتُ من مطالعة المنَّة ، وتثبت باتباع السُّنَّة ، وتنمو على الإجابة بالفاقة » .

---

(١) استنشاق نسيم الأُنْس ص٥٥ .

(٢) مدارج السالكين ٣٦/٣ .

قال ابن القيم عنها: « تنشأ من مطالعة العبد منّة الله عليه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فبقدْر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة ؛ فإن القلوب مجبولة على حبِّ من أحسن إليها ، وبُغْضِ مَن أساء إليها ، وليس للعبد قطُّ إحسان إلّا من الله ، ولا إساءة إلّا من الشيطان .

ومن أعظم مطالعة منّة الله على عبده : تأهيلهُ لمحبَّته ومعرفته ، وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه . وأصل هذا : نورٌ يقذفه الله في قلب العبد ؛ فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته ، أشرقت ذاته ، فرأى فيه نفسه ، وما أُهِّلَتْ له من الكمالات والمحاسن ، فعلَتْ به همته ، وقويت عزيمته ، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، فرقيتْ الروح حينئذٍ بين الهيْبة والأنس إلى الحبيب الأول .

نقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئْتَ مِنَ الهوىٰ ... ما الحبُّ إلّا للحبيبِ الأوَّلِ
كمْ منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتىٰ ... وحنينُهُ أبدًا لأوّلِ منزلِ

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرَّبين السابقين ، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين ، وكالنجم في قلوب عامَّة المؤمنين . وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهى .

وثبات هذه المحبة إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه . فبحسب هذا الاتباع ؛ يكون منشأ هذه المحبَّة وثباتها وقوتها . وبحسب نقصانه يكون نقصانها . وهذا الاتباع يُوجب المحبَّة والمحبوبية معًا ، ولا يتمُّ الأمر إلا بهما . فليس الشأن في أن تحبَّ الله ، بل الشأن في أن يحبَّك اللهُ ، ولا يحبُّك الله إلّا إذا اتبعتَ حبيبه ظاهرًا وباطنًا ، وصدَّقته خبَرًا ، وأطعْتَه أمْرًا ، وأجبْته دعوة ، وآثرته طوْعًا ، وفنيت عن حكْمِ غيره بحكمه ، وعن محبَّة غيره من الخلْق بمحبَّته ، وعن طاعة غيره بطاعته ؛ وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ ، وارجعْ من حيث شئتَ فالتمسْ نورًا ؛ فلستَ على

شيء . وتأمَّلْ قوله : ﴿ فاتبعوني يحبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : ٣١] أي الشأن في أن الله يحبُّكم ، لا في أنكم تحبُّونه ، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ .

« وتنمو على الإجابة بالفاقة » : أن يجيب الدَّاعي بموفور الأعمال ، وهو خالٍ منها كأنه لم يعملها ، بل يجيب دعوته بمجرَّد الإفلاس والفقر التامِّ ؛ فإن طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عمل أو حال أو مقام ، وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحْض والفاقة المجرّدة ، ولا ريب أن المحبَّة تنمو على هذا المشهد ، وهذه الإجابة . وما أعزّه من مقام ، وأعلاه من مشهد ، وما أنفعه للعبد ، وما أجلبَه للمحبَّة . والله المستعان »[1] .

« الدرجة الثانية : محبَّة تبعثُ على إيثار الحقِّ على غيره ، وتُلهِج اللسانَ بذكْره ، وتُعَلِّقُ القلب بشهوده ، وهي محبَّة تظهر من مطالعة الصفات ، والنظر إلى الآيات ، والارتياض بالمقامات » :

قال ابن القيم : « هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها ، باعتبار سببها وغايتها . فإنَّ سبب الأولى : مطالعة الإحسان والمنّة ، وسبب هذه : مطالعة الصفات ، وشهود معاني آياته المسموعة ، والنظر إلى آياته المشهودة ، وحصول الملكة في مقامات السلوك ، وهو الارتياض بالمقامات ، ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها .

ولكمالها وقوتها فإنها تقتضي من المحبِّ أن يترك لأجل الحقِّ ما سواه ، فيؤْثِره على غيره ، ولا يُؤْثر غيره عليه ، ويجعل اللسان لهِجًا بذكْره ، فإن مَن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره ، وتعلّق القلب بشهوده لفرْطِ استيلائه على القلب وتعلُّقه به حتى كأنَّه لا يشاهد غيره .

(١) مدارج السالكين ٣/٣٦ - ٣٨ .

وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات بإثباتها أولًا ، ومعرفتها ثانيًا ، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثًا ، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعًا . فلا يصحُّ له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة ، إلّا بهذه الأمور الأربعة ، وكلما أكثر قلبُه من مطالعتها ، ومعرفة معانيها ، ازدادت محبَّته للموصوف بها . ولذلك كانت الجهميَّة قُطَّاع طريق المحبَّة ، بين المحبِّين وبينهم السيْفُ الأحمر .

وقوله : « النظر إلى الآيات » : أي نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة ، وفي آياته المسموعة ؛ وكلّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبَّته سبحانه ؛ لأنها أدلة على صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتوحيد ربوبيَّتِهِ وإلٰهيته ، وعلى حكمته وبـرِّه ، وإحسانه ولطفه ، وجوده وكرمه ، وسَعة رحمته وسبوغ نعمته ، فإدامة النظر فيها داعٍ - لا محالة - إلى محبّته .

وكذلك الارتياض بالمقامات ؛ فإنَّ مَن كانت له رياضة ومَلَكَة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان ؛ كانت محبته أقوى ؛ لأن محبَّة الله له أتمُّ . وإذا أحبَّ الله عبدًا أنشأ في قلبه محبته »[1] .

وتوحيد المحبة والبقاء أكمل من توحيد الفناء ، وأعلى مقامًا وأجلُّ مشهدًا ، وهو مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وخواصّ المقرَّبين . ولسان المحبة أتمُّ ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصَّحْو لا السُّكْرِ ، والتمكين لا التلوين ، والبقاء لا الفناء ، ولسانه نائب عن كلِّ لسان ، وبيانه وافٍ بكل ذوق ، ومقامه أعلى من كل مقام ، فهو أمين على كل مَن دونه من أرباب المقامات ؛ لأنَّ مقامه أميرٌ على المقامات كلِّها .

أمـينٌ أمـينٌ عليـه النـدىٰ جـوادٌ بخيلٌ بأنْ لا يجودا

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٨ - ٣٩ .

العبوديَّة مرتبةٌ عظيمةٌ من مراتبِ المحبَّة :

العبودية : مرتبة عظيمة من مراتب المحبَّة . قال ابن القيم رحمه الله : « حقيقة العبودية : الحبُّ التامُّ مع الذلِّ التامّ والخضوع للمحبوب . والعبد هو الذي ملك المحبوبُ رقّه ، فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة ، بل كله عبدٌ لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا . وهذه هي حقيقة العبودية ، ومَن كمَّل ذلك فقد كمَّل مرتبتها . ولمَّا كمَّل سيد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة ؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته :

مقام إنزال الكتاب عليه : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده** ... ﴾ [الفرقان: ١] . وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ... ﴾ [الكهف : ١] .

ومقام الإسراء : كقوله : ﴿ **سبحان الذي أسرىٰ بعبده** ... ﴾ الآية [الإسراء : ١] .

ومقام الدعوة : كقوله : ﴿ **وأنه لمّا قام عبد الله يدعوه** ... ﴾ الآية [الجن : ١٩] .

ومقام التحدي : كقوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزَّلْنا على عبدنا** .. ﴾ الآية [البقرة : ٢٣] .

وبذلك استحقَّ التقديمَ على الخلائق في الدنيا والآخرة . وكذلك يقول المسيح عليه السلام إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « اذهبوا إلى محمد ؛ عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر » .

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : فحصلتْ له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى ، وكمال مغفرة الله له » . اهـ .

فلا طريق أقرب إلى الله من العبودية ، ولا حجابَ أغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الإعجاب والكِبْر عمل واجتهاد ، ولا يضرُّ مع الذلِّ والافتقار بطالة

بعد عمل الفرائض . « ومَن أراد السعادة الأبديَّة فليلزمْ عتبة العبودية » كما قال ابن تيمية .

مرتبة الخُلَّةِ أعلىٰ مقامات المحبَّة ، وهي للخليليْن محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم :

« الخلَّة » : هي المحبَّة التي تخلّلتْ روحَ المحبِّ وقلبَه ، حتى لم يبقَ فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قدْ تخلّلْت مسلَكَ الروحِ مني وبِذا سُمِّي الخليلُ خليلَا

وهذه المرتبة انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لو كنتُ متخذًا من أُمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكن الله اتخذ صاحبَكم خليلًا »[(١)] .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكر خليلًا ، ولكن أخي وصاحبي »[(٢)] .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا ، لاتخذتُ ابنَ أبي قحافة خليلًا ، ولكن صاحبكم خليلُ الله »[(٣)] .

وقوله ﷺ : « إنَّ الله اتخذني خليلًا ، كما اتخذ إبراهيمَ خليلًا »[(٤)] .

ولهذه الخلَّة شأن عظيم ، وهي السرُّ الذي لأجله - واللهُ أعلم - أُمر الخليلُ بذبْح ولده وثمرة فؤاده وفلذة كبده ؛ لأنه لمّا سألَ الولدَ فأعطيه ، تعلَّقت به شعبة من قلبه ، و « الخلَّة » مَنصبٌ لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره ، فأمره بذبْح الولد ، ليُخرِجَ

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .

(٢) رواه البخاري ، وأحمد في مسنده عن ابن الزبير ، والبخاري عن ابن عباس .

(٣) رواه مسلم عن ابن مسعود .

(٤) رواه مسلم والحاكم في المستدرك عن جندب بن سمرة .

المزاحِمَ من قلبه ، فلمَّا وطَّن نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر ، فلم يبقَ في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبْح العظيم ، وقيل له : ﴿ **يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ١٠٤ – ١٠٥] نجزي مَن بادر إلى طاعتنا ، فنقرُّ عيْنَه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ، ﴿ **إنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبين** ﴾ .

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواصَّ خلْقه ، وأهل الألباب والبصائر منهم ، فما كلُّ أحدٍ يجيب داعيها ، ولا كل عينٍ قريرة بها .

فمـا كـلُّ عيْن بالحـبيـبِ قـريـرةٌ ... ولا كلُّ مَن نُودي يُجيبُ المناديا
ومَن لا يُجِبْ داعي هُداكَ فخـلِّهِ ... يُجِبْ كلَّ مَن أضحىٰ إلى الغيِّ داعيا
وقـلْ للعيـونِ الرمْـدِ إياكِ أنْ تريْ ... سنا الشمسِ فاستغشي ظلام اللياليا
وسـامِـحْ نفـوسًا لم يهبْهَا لحُبِّهـمْ ... ودعْها وما اختارت ولا تكُ جافيا
وقـلْ للذي قـد غـاب يكفي عقـوبةً ... مغيبُكَ عنْ ذا الشانِ لو كنتَ واعيا
وواللهِ لو أضحىٰ نصيبـك وافـرًا ... رحمتَ عـدوًّا حاسِـدًا لـكَ قاليـا
ألـمْ تـرَ آثـارَ القطـيعةِ قـدْ بـدتْ ... على حالِه فارحمْهُ إنْ كنتَ رائيا
خفافيـشُ أعشـاهـا النهـارُ بضـوْئِهِ ... ولاءمهـا قطْـعٌ مـن الليـلِ باديـا
فجالـتْ وصالـتْ فيه حتى إذا النهـا ... ر بدا استخفتْ وأعطتْ تـواريـا
فيا محنةَ الحسناءِ تهدىٰ إلى امرئ ... ضـريرٍ وعِنِّينٍ مـن الوجْـدِ خـاليا
إذا ظُلْمـةُ الليـلِ انجلـتْ بضـيائها ... يعـودُ لعيْنيه ظـلامًا كمـا هـيـا
فضِنَّ بها إنْ كنتَ تعرفُ قدرهـا ... إلى أن ترىٰ كُفـؤًا أتـاك مـوافـيا
فما مَهْرُها شيءٌ سوىٰ الروحِ أيُّها الْـ ... ـجبانُ تأخّرْ لستَ كُفْؤًا مسـاويا
فكنْ أبدًا حيثُ استقلَّتْ ركائبُ الْـ ... ـمَحَبَّة في ظهْـرِ العزائـمِ ساريا
وأَدْلـجْ ولا تخشَ الظـلامَ فإنَّـهُ ... سَيكفيكَ وجهُ الحِبِّ في الليل هاديا
وسُـقْهـا بـذكـراهُ مطـايـاكَ إنـهُ ... سيكفي المطايا طِيبُ ذكراهُ حـادِيا

وعِدْها بُروحِ الوصْل تُعطيكَ سيرَها فما مَشِيتْ واستَبْقِ العظامَ البواليا
وأقدِمْ فإمَّا مُنيةٌ أو منيَّةٌ تريحكَ من عيْشٍ بهِ لسْتَ راضيا
فما ثَمَّ إلّا الوصْلُ أو كَلَفٌ بهمْ وحسبُكَ فوْزًا ذاكَ إنْ كنتَ واعيا
ولمّا ادَّعيتُ الحبَّ قالتْ : كذبتَني فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا
فلا حبَّ حتى يلصقَ القلبُ بالحشا وتذبُل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلَ حتى لا يبقِّي لكَ الهوىٰ سوىٰ مقلةٍ تبكي بها وتناجيا

نعمْ .. إمَّا أنْ تموتَ بدائك ، وإما أن تصل إلى دوائك .

أطيبُ الحياةِ أنْ تكونَ مُحِبًّا لله محبوبًا :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرَّبَ إلَيّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إلَيّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويده التي يَبطِشُ بها ، ورِجْلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه ، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفْس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1] .

قال ابن القيم : « أطيب الحياة : حياة هذا العبد ؛ فإنه محبٌّ محبوب ، متقرِّب إلى ربه ، وربُّه قريب منه ، قد صار له حبيبَه لفرط استيلائه على قلبه ، ولهجه بذكْره ، وعكوف همته على مرضاته ، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله ، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه ؛ فإنْ سمِع سمِع بحبيبه ، وإنْ أبصرَ أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به .

فإن صعب عليك فهْمَ هذا المعنى ، وكوْن المحب الكامل المحبَّة يسمع

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » . كتاب الرقائق . باب التواضع .

ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه ، وذاته غائبة عنه ؛ فاضربْ عنه صفْحًا ، وخلِّ هذا الشأن لأهله .

خلِّ الهـوىٰ لأناس يُعرَفونَ بِهِ قدْ كابَدُوا الحُبَّ حتى لانَ أصعَبُهُ

فإنّ السالِك إلى ربِّه لا تزال همَّته عاكفة على أمريْن : استفراغ القلب في صدق الحبِّ ، وبذْل الجهد في امتثال الأمر ، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سرِّه شواهد معرفته ، وآثار صفاته وأسمائه ، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيـانًا ، ويبدو أحيانًا ؛ يبدو مِنْ عيْن الجود ، ويتوارىٰ بحكـم الفتْـرة . والفترات أمرٌ لازم للعبد، فكل عامل له شرَّة، ولكل شرّة فتْرة، فأعلاها فترة وهي للأنبياء ، وفترة الحال الخاصّ للعارفين ، وفترة الهمّة للمريدين ، وفترة العمل للعابدين . وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة ، والتعرُّفات الإلٰهية ، وتعريف قدر النعمة ، وتجديد الشوق إليها ، ومحض التواجد إليها وغير ذلك .

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقرّ ، وينصبغ بها قلبه ، وتصير الفترة غير قاطعة له ، بل تكون نعمة عليه وراحة له ، وترويحا وتنفيسًا عنه .

فهمَّة المحـبِّ إذا تعلَّقت روحه بحبيبه ، عاكفًا على مـزيد محبَّته وأسباب قوتها ، فهو يعمل على هذا ، ثم يترقَّى منه إلى طلب محبَّة حبيبه له ، فيعمل على حصول ذلك ، ولا يعدم الطلب الأول ولا يفارقه ألبتة ، بل يندرج في هذا الطلب الثاني ، فتتعلَّق همَّته بالأمريْن جميعًا ؛ فإنه إنما يحصل له منزلة « كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به » بهذا الأمر الثاني وهو كونه محبوبًا لحبيبه ؛ كما قال في الحديث : « فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصره ... » إلخ . فهو يتقرّب إلى ربِّه حِفظًا لمحبته له ، واستدعاءً لمحبَّة ربِّه له .

فحينئذٍ يشدُّ مِئزر الجدِّ في طلب محبَّة حبيبه له ، بأنواع التقرُّب إليه ؛ فقلبه للمحبَّة والإنابة والتوكُّل والخوف والرجاء ، ولسانه للذكر وتلاوة كلام حبيبه ، وجوارحه للطاعات ؛ فهو لا يفتر عن التقرُّب من حبيبه .

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلا به . ولا يُتوصَّل إليـها إلّا مِن هـذا الباب وهـذه الطريق ، وحينئذ تُجمع له في سيره جميعُ متفرقات السلوك ؛ من الحضور ، والهيبة ، والمراقبة ، ونفي الخاطر ، وتخلية الباطن .

فإنَّ المحبَّ يشرع - أولًا - في التقربات بالأعمال الظاهرة ، وهي ظاهر التقرُّب ، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرُّب ، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلِّيَّته ، بروحه وقلبه ، وعقله وبدنه ، ثمَّ يترقّى من ذلك إلى حال الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، فيتقرَّب إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب ؛ من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية ، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذْل الروح ، والجود في محبَّة حبيبه بلا تكلف ، فيجود بروحه ونفسه ، ونَفَسه وإرادته ، وأعماله لحبيبه ، حالًا لا تكلُّفًا . فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظَفِر بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه . وإنْ لم يجده فهو يتقرّب بلسانه وبدنه وظاهره فقط ، فليدُمْ على ذلك ، وليتكلَّفِ التقرُّب بالأذكار والأعمال على الدوام ، فعسَاه أن يحظى بحال القرْب .

ووراء هذا « القرب الباطن » أمر آخر أيضًا ، وهو شيء لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلْق إلى الله ؛ رسول الله ﷺ عن هذا المعنى ؛ حيث يقول حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالى : « مَن تقرَّب منِّي شبرًا تقربتُ منه ذراعًا ، ومَن تقرّب مني ذراعًا تقربتُ منه باعًا ، ومَن أتاني يمشي أتيتُه هَرْولةً » . فيجد هذا المحب في باطنه ذوْق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا .

فذكر مِن مراتب القرْب ثلاثة ، ونبّه به على ما دونها وما فوقها ، فذكر

تقرُّب العبد إليه بالبِرّ ، وتقرُّبه سبحانه إلى العبد ذراعًا ، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرُّب انتقل منه إلى تقرُّب الذراع ، فيجد ذوق تقرُّبِ الربِّ إليه باعًا ، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني ؛ أسرَع المشي حينئذٍ إلى ربّه ، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولةً ، وهاهنا منتهى الحديث . منبِّهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قربُ حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه . فإمَّا أن يكون قد أمسَكَ عن ذلك لعظيمِ شاهدِ الجزاء ، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بَشَر ، أو إحالةً على المراتب المتقدِّمة . فكأنه قيل له : وقِسْ على هذا . فعلى قدْر ما تبذل منك متقرِّبًا إلى ربِّك يتقرَّب إليك بأكثر منه . وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه ؛ أي : مَن تقرَّب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه ، وإرادته وأقواله وأعماله ؛ تقرَّب الربُّ منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه .

ولله درُّ القائل :

ما زلتُ أنزلُ مِنْ ودادِكَ منزلًا ... تتحيَّرُ الألبابُ عندَ نزولِهِ

وليس القُرْب في هذه المراتب كلِّها قُرْبَ مسافة حِسِّيَّة ولا مُماسَّة ، بل هو قرب حقيقي ، والربُّ تعالى فوق سماواته على عرشه والعبد في الأرض ، وهذا الموضع هو سرُّ السلوك وحقيقة العبودية .

وملاك هذا الأمر : هو قصد التقرُّب أولًا ، ثم التقرُّب ثانيًا ، ثم حال القُرْب ثالثًا وهو الانبعاث بالكليَّة إلى الحبيب .

وحقيقة هذا الانبعاث : أن تفنى بمراده عن هواك ، وبما منه عن حظِّك ، بل يصير ذلك هو مجموع حظِّك ومرادك ، وقد عرفت أنَّ من تقرَّب إلى حبيبه بشيء جُوزي على ذلك بقرْبٍ هو أضعافه . وعرفتَ أن أعلى أنواع التقرُّب : تقرُّب العبدِ بجملته - بظاهره وباطنه - وبوجوده إلى حبيبه . فمن فعَل ذلك فقد تقرَّب بكلِّه ، ولم تبقَ منه بقيَّة لغير حبيبه ؛ كما قيل :

لا كان من لسواك فيهِ بقيةٌ ... يجدُ السبيلَ بها إليه العُذَّلُ

وإذا كان المتقرَّب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعافِ ما تُقُرِّب به ، فما الظنُّ بمن أُعطي حالَ التقرُّب وذوْقه ووجده ؟! فما الظنُّ بمن تقرّب إليه بروحه ، وجميع إرادته ، وهمته وأقواله وأعماله ؟! .

وهذه الحياة : هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ففقْده لحياته الطبيعيَّة أولى به .

هٰذي حياة الفتى فإن فُقِدتْ ... ففقْدُهُ للحياةِ أليقٌ بِهِ

فلا عيش إلا عيش المحبِّين الذين قرَّت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقرْبِهِ ، وتنعَّموا بحبِّه ، ففي القلب فاقة لا يسدُّها إلّا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ، ولا يلمُّ شعثهُ بغير ذلك ألبتة . ومن لم يظفر بذلك فحياتهُ كلها همومٌ وغمومٌ ، وآلامٌ وحسَرَات . فإنه إن كان ذا همة عالية تقطَّعت نفسه على الدنيا حسَرَات ؛ فإن همته لا ترضىٰ فيها بالدُّون ، وإن كان مهينًا خسيسًا فعيْشُه كعيْشِ أخسِّ الحيوانات . فلا تقرُّ العيون إلّا بمحبَّة الحبيب الأول .

أبو بكر الصِّدِّيق يسبقُ الأمَّة بحبِّه لله :

عن بكر المُزَني قال : ما فاق أبو بكر أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ ؛ ولكن بشيءٍ وقَرَ في قلبه .

قال إبراهيم : بلغني عن ابن علية أنه قال في عقيب هذا الحديث : الذي كان في قلبه الحبُّ لله عز وجل والنصيحة لخلقه[1] .

ابن عمر يسأل اللهَ حبَّه :

كان ابن عمر يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه : « اللهمَّ اجعلني

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص١٣ لابن رجب الحنبلي – المكتب الإسلامي .

ممَّن يحبُّك ، ويحبُّ ملائكتك ، ويحبُّ رُسُلَك ، ويحبُّ عبادك الصالحين . اللهمَّ حبِّبْني إليك وإلى ملائكتك ، وإلى رُسُلك وإلى عبادِك الصالحين »[١] .

حكيـم بن حِـزام سـيِّدٌ شعارُه الحبُّ :

كان رضي الله عنه يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا الله ، نِعْمَ الرب ونِعْمَ الإله ، أحبُّه وأخشاه[٢] .

« وقال هرم بن حيَّان : المؤمن إذا عرف ربَّه عز وجل أحبَّه ، وإذا أحبَّه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعيْن الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تُحسِّره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة .

وقال أبو سليمان الداراني : إنَّ من خلْقِ الله خلْقًا ما يشغلهم الجِنانُ وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟! »[٣] .

العبَّاسُ يُوصي ابنَه حبْرَ القرآن بحبِّ الله :

« عن عبد الله بن إبراهيم القرشي قال : لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت ، قال لابنه عبد الله : إني موصيك بحبِّ الله وحبِّ طاعته ، وخوف الله وخوف معصيته ، وإنك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموت متى أتاك »[٤] .

سيروا إلى ربِّكم سيْرًا جميلًا :

قال خليد العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحبُّ أن يلقىٰ حبيبه ؟ ألا فأحِبُّوا ربَّكم عز وجل وسيروا إليه سيرًا جميلًا ، لا مصعدًا ولا

---

(١) المصدر السابق ص٤١ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٩ .
(٣) إحياء علوم الدين ٣١٣/٤ .
(٤) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٨ .

مميلًا[1] .

قال أبو سليمان الداراني : مَن كان اليوم مشغولًا بنفسه ، فهو غدًا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولًا بربِّه ، فهو غدًا مشغول بربه .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلام ، لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس ، وما تنكح وما تسكن وما تَجمع ، كل هذا همُّ النفس والطبع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمَّك فليكنْ همّكَ ربّك عز وجلَّ وما عنده » .

ولله درُّ القائل :

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقَةٌ ... فاستجمعتْ مُذْ رآكَ القلبُ أهوائي
فصارَ يحسُدني مَن كنتُ أحسُدُهُ ... وصرتُ مولَى الورىٰ مُذْ صرتَ مولائي
تركتُ للناسِ دنياهمْ ولهوَهُمُ ... شُغلًا بحبِّك يا دِيني ودنيائي

وقال الشاعر :

أروحُ وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبِّكَ أنْ يحلَّ به سواكا
فلو أني استطعتُ غضضْتُ طرْفي ... فلمْ أنظر به حتى أراكا
أُحبُّك لا ببعضي بل بكلِّي ... وإن لم يُبقِ حبُّك لي حِراكا
وفي الأحباب مختصٌّ بوجْدٍ ... وآخر يدَّعي معهُ اشتراكا
وكلٌّ يدَّعي حبًّا لربي ... وربي لا يُقرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ ... تبيَّنَ مَن بكىٰ ممَّن تباكىٰ
فأمَّا مَن بكىٰ فيذوبُ وجْدًا ... وينطقُ بالهوىٰ مَن قد تباكىٰ

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٧ ، حلية الأولياء ٢/٢٣٢ ، وصفة الصفوة ٣/ ٢٣٧ .

النفسُ المطمئنَّة هي المُحِبَّة لربِّها ، عندَ الحسَن البصري :

قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **يأيَّتها النفسُ المطمئنة** ﴾ [الفجر : ٢٧] : « النفس المؤمنة اطمأنت إلى الله واطمأنَّ إليها ، وأحبَّتْ لقاء الله وأحبَّ لقاءَها ، ورضيتْ عن الله ورضي عنها ، فأمَر بقبْضِ روحها ، فغفر لها وأدخلها الجنة ، وجعلها من عباده الصالحين » .

همُ الأبرار متصلَة بمحبَّة الرحمٰن :

وقال نعيم بن صبيح السعدي : همم الأبرار متصلة بمحبَّة الرحمٰن ، وقلوبهم تنظر إلى موضع العزِّ من الآخرة بنور أبصارهم .

طوبىٰ لقُلوبٍ ملأتْها محبَّة الله :

وقال مسمع بن عاصم : سمعتُ عابدًا من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قرَّة عيني وسرور قلبي !! ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم .. ثم صرخ وبكىٰ ، ثم نادى : طوبى لقلوبٍ ملأتها خشيتُك . واستولت عليها محبَّتك ، فمحبتك مانعة لها من كلِّ لذَّة غير مناجاتك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن سبيل كلِّ معصيةٍ خوفًا لحلول سُخْطك . ثم بكىٰ وقال : يا إخوتاه ، ابكوا على فوْت خَيْر الآخرة ؛ حيث لا رجعة ولا حيلة .

ضيْغَمُ بنُ مالكٍ المحبُّ الخائف :

قال ضيغم يومًا لمولًى له : « منعني - والله - حبُّ الله من الاشتغال بحبِّ غيره . ثم سقط مغشيًّا عليه »[1] .

« وكان رحمه الله يقول وهو ساجد : إلٰهي ، كيف عزَفَتْ قلوبُ الخليقة عنك ؟! وربما أصابتْه الفترة ، فإذا وجدَ ذلك اغتسَل ، ثم دخل بيتًا فأغلق بابه

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٣٣ .

وقال : إلٰهي ، إليك جئتُ .. فيعود إلى ما كان من الركوع والسجود .

قالت له أمه ذات يوم : ضيْغم .. قال : لبيكِ يا أماه . قالت : كيف فرحُك بالقدوم على الله ؟ فصاح صيحة لم يسمعوه صاحَ مثلَها قطُّ ، وسقط مغشيًّا عليه ، فجلسَتِ العجوز تبكي عند رأسه وتقول : بأبي أنت !! ما تستطيع أن نذكُر بين يديك شيئًا من أمْرِ ربك »[1] .

وكان كلاب بن جري العابد يقول في سجوده : وعزَّتِكَ ، لقد خالَطَ قلبي من محبَّتك ما يكلُّ لساني عمَّا أجد منه في نفسي .

دواءُ المحبِّين في الجبالِ لم يَنْبُت :

وقدِمتْ شعوانةُ العابدة وزوجها مكَّة ، فجَعَلا يطوفان ويصلِّيان ، فإذا كَلَّا وأعييا جلس وجلست خلفه ، فيقول في جلوسه : أنا العطشان من حبِّك ولا أُرْوَى . وتقول هي بالفارسية : يا سيدي ، أنبتَّ لكلِّ داءٍ دواءً في الجبال ، ودواءُ المحبِّين في الجبال لم ينبت .

ودخلوا على عابدٍ في البصرة وهو يجود بنفسه وهو يقول : أنا عطشانُ لم أروَ من حبِّ ربي ، وجائع لم أشبع من حبِّ ربي .

وفتح الموصلي من سادات المحبِّين :

وقال المعافى بن عمران : كلَّمتُ فتْحًا المَوْصلي في شيء ، فقال : لم تترك المحبَّة لله في قلوب أوليائه موضعًا لمحبة غيره .

عُتبةُ الغلام القائل : تُراكَ مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم :

« قال سليم النحيف : رمقتُ عُتبة ذاتَ ليلة ، فما زاد ليلته تلك على

(١) صفة الصفوة ٣/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الكلمات : إنْ تعذِّبْني فإني لك محبٌّ ، وإن ترحمني فإني لك محبٌّ . فلم يزلْ يردِّدها ويبكي حتى طلع الفجر .

وقال محمد بن فهد المديني : كان عتبة يصلِّي هذا الليل الطويل ، فإذا فرغ رفَع رأسَه فقال : سيِّدي ، إن تعذِّبْني فإني أُحبُّك ، وإنْ تعفُ عني فإني أحبُّك .

وقال عنبسة الخوَّاص : بات عندي عُتبةُ ذات ليلة ، فبكى من السَّحَر بكاءً شديدًا ، فلمَّا أصبح قلتُ له : قد فزعتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيم ذاك يا أخي ؟ قال : يا عنبسة ، إني والله ذكرتُ يوم العرْض على الله . ثم مال ليسقط فاحتضنتُه ... فناديتُه:عتبة عتبة ، فأجابني بصوتٍ خَفيٍّ : قطَّع ذِكْرُ يومِ العرْض على الله أوصالَ المحبِّين . قال : ويردِّده ، ثم جعل يحشرج البكاء ويردِّده حشرجةَ الموت ويقول : تُراك مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم ؟! قال : فلمْ يزلْ يردِّدها حتى والله أبكاني .

وقال عُتبة رحمه الله : من سكن حبُّه قلبَه لم يجدْ حَرًّا ولا برْدًا . قال عبد الرحيم بن يحيىٰ الدبيلي : يعني من سكن حبُّ الله قلبَه ، شغَله حتى لا يعرف الحرَّ من البرد ، ولا الحُلو من الحامض ، ولا الحارَّ من البارد .

وقال عتبة رحمه الله : مَن عرف الله أحبَّه ، ومن أحبَّ الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومَن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه . فلم يزل يقول : وطوباه.حتى خرَّ ساقِطًا مغشيًّا عليه .

وكان رحمه الله يقول : سبحان جبَّارِ السماءِ ، إن المحبَّ لفي عناء »[1] .

(١) حلية الأولياء ٦/٢٣٤ - ٢٣٦ .

يحيى بن معاذ الرازي المحبُّ :

قال رحمه الله : « اللهمَّ لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ، ويهرب منك بالقلوب ، يا أكرم الأشياء علينا ، لا تجعلنا أهون الأشياء عليك » .

قال رحمه الله : « لو أدركتِ القلوب كنْه المحبَّة لخالقها ، لانخعلت مفاصلها وَلَهًا ، ولَطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا . سبحان من أغفل الخليقَة عن كنْهِ هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء » .

وكان رحمه الله يقول : « يا من رجّاني في الطريق بنعمه ، وأشار لي في الورود إلى كرَمِه ، معرفتي بك دليلي عليك ، وحبِّي لك شفيعي إليك » .

وكان رحمه الله يقول : « هذا سروري بك خائفًا ، فكيف سروري بك آمنًا ؟! هذا سروري بك في المجالس ، فكيف سروري بك في تلك المجالس ؟! هذا سروري بك في دار الفناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء ؟! » .

وانظر إلى هذا السيد المحبّ يحيى بن معاذ ؛ كيف يستمطر الدمع حين يقول :

أموتُ بدائي لا يُصابُ دوائيا ... ولا فرَجٌ ممَّا أرى في بلائيا
يقولونَ يحيى جُنَّ من بعد صحَّةٍ ... ولا يعلم العُذّالُ ما في حشائيَا
إذا كان داء المرءِ حبّ مليكِهِ ... فمَن غيرَه يرجو طبيبًا مداويَا
ذروني وشأني لا تزيدوا كربتي ... وخلُّوا عناني نحو مولى المواليا
ألا فاهجروني وارغبُوا في قطيعتي ... ولا تكشفوا عمَّا يجنُّ فؤاديا
كِلوني إلى المولى وكُفُّوا ملامتي ... لآنسَ بالمولى على كلِّ ما بيا

وقال رحمه الله : « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟! ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبُّه ؟! وحبُّه يُدْهش العقول فكيف وُدُّه ؟! ووُدُّه يُنسي ما دونه فكيف لطفه ؟!

وقال رحمه الله : مثقال خرْدلة من الحُبِّ أحبُّ إلَيَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبٍّ .

وقال رحمه الله : إلٰهي ، إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرًا أخذتَني إليك ، وسربلتَني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتَني في الأحوال ، وقلّبْتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهْدًا ، وشوقًا ورضًا وحبًّا ، تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازمًا لأمرك ، ومشغوفًا بقولك ، ولمَّا طَرَّ شاربي ولاح طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا ، وقد اعتدْتُ هذا منك صغيرًا ، فلي ما بقيتُ حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ؛ لأني محبٌّ ، وكلُّ محبّ بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف »[1] .

وكان رحمه الله يقول : إلٰهي ، ذنبي إلى نفسي فأنا معناه ، وحبِّي لك هو لك فأنت معناه ، والحبُّ أعتقده لك طائعًا ، والذنبُ آتيه مني كارهًا ، فهَبْ كراهة ذنبي لطواعية حبي إنك أرحم الراحمين[2] .

وكان رحمه الله يقول : واسوأتاه منك إذا شاهدتَني وهمَّتي تسبق إلى سواك ، أم كيف لا أضني في طلب رضاك !!

وقال رحمه الله ، قلب المحبِّ يهيم بالطيران ، وتكلمه لدغاتُ الشَّوْق والخفقان .

وقال رحمه الله : « لو لم يسكنهم ببلواهُ لَطارت بهم نُعَماه ، ولم يصل إليه من لم يرضَ بقسْمه ، ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه ، ولم يحبه مَنْ لم يتِهْ في كرمه .

---

(١) الإحياء ٤/٣١٣ .

(٢) حلية الأولياء ١٠/٥١ - ٥٢ .

وقال : حين خاطروا بالنفوس اقتربوا ، وهذا طعْم الخبَر فكيف طعْم النظر ؟!

وقال : أولياؤه أُسراءُ نِعَمه ، وأصفياؤه رهائنُ كرمه ، وأحبَّاؤه عبيد مِنَنِه ، فهم عبيد محبَّةٍ لا يُعتقون ، ورهائن كَرَمٍ لا يُفكُّون ، وأسراء نعم لا يُطلَقُون .

وقال رحمه الله في وصف المحبّين : قوم على فرش من الذِّكْر ، في مجلس من الشَّوْق ، وبساتين من المناجاة ، بين رياض الأطراب ، وقُصور الهيْبة وفناء مجلس الأنس ، معانقي عرائس الحكمة بصدور الأفهام ، مناعي زفرات الوجد وجوه الآخرة بفنون الأفراح ، تعاطوا بينهم كأس حبِّه ، سقاهم فيها ، وغَوَتْهم على شُرْبها فرقان الشجي ، تجري في الأكباد تُديم عليهم ذكْر الحبيب ، ويلبلهم معها هيمان الوجود .

طرب الحبّ على الحبِّ مع الحبِّ يدومْ
عجبًا لمن رأيناه على الحبِّ يلومْ
حوْلَ حبِّ اللهِ ما عشتُ معَ الشوْقِ أحومْ
وبه أقعُدُ ما عشْتُ حياتي وأقومْ

وقال أيضًا رحمه الله :

نفسُ المحبِّ إلى الحبيبِ تَطلَّعُ ... وفؤادُه مِن حبِّه يتقطَّعُ
عزَّ الحبيبُ إذا خلا في ليلِهِ ... بحبيبه يشكو إليه ويضرَعُ
ويقومُ في المحرابِ يشكو بثَّهُ ... والقلبُ منه إلى المحبَّةِ ينزعُ »[1]

سمنون بن حمزة الخوَّاص :

قال ابن رجب : « كان سمنون شديد المحبَّة . ويُقال : إنه تكلَّم يومًا في

(١) انظر ترجمة يحيى في الحلية ، ١٠/٥١ - ٧٠ .

المحبَّة فاصطفقتْ[١] قناديلُ المسجد حتى تكسَّرت ، وأنه تكلَّم يومًا فيها فجاء طائر يضرِبُ بمنقاره الأرض حتى مات »[٢] .

وكان رحمه الله يقول :

يا مَنْ فؤادي عليهِ موقوفُ ... وكلُّ همِّي إليهِ مصروفُ
يا حسرتي حسرة أموتُ بها ... إنْ لم يكنْ لي لديكَ معروفُ

وقال رحمه الله :

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري ... وآخر يرعىٰ ناظري ولسانيا
فما خطرَتْ من ذكْرِ غيركَ خطرةٌ ... على القلبِ إلّا عرَّجا بعنانيا[٣]

وقال :

لقدْ كانَ يسبي القلبَ في كلِّ ليلةٍ ... ثمانون بلْ تسعون نفْسًا وأرجحُ
يهيمُ بهذا ثمَّ يألفُ غيرَهُ ... ويسلُوهُمُ من فوْرهِ حين يُصبحُ
وقد كان قلبي خاليًا[٤] قبلَ حُبِّكُمْ ... وكان بحبِّ الخلْق يلهو ويمرحُ
فلمَّا دعا قلبي هواك أجابَهُ ... فلستُ أراهُ عن حيائك يبرحُ
حُرِمتُ منائيَ منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كان شيءٌ في الوجود سواكمُ ... يَقَرُّ بهِ القلبُ الجريحُ ويفرحُ
إذا لعبتْ أيدي الهوىٰ بمُحبِّكمْ ... فليسَ لهُ عنْ بابِكمْ مُتَزَحْزَحُ
فإنْ أدركتْهُ غرْبةٌ عنْ ديارِكُم ... فحبُّكمْ بينَ الحشَا ليسَ يَبرحُ
وكمْ مشترٍ في الخلْقِ قد سامَ قلبُهُ ... فلمْ يرَهُ إلّا لحبِّك يَصلحُ
هوىٰ غيرِكُمْ نارٌ تلظَّىٰ ومَحْبس ... وحُبُّكُمُ الفردوسُ بلْ هو أفسحُ

---

(١) أي : اضطربتْ .

(٢) استنشاق نسيم الأنس ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/٢٣٥ .

(٤) وفي أخرى : ضائعًا .

فيا ضَيْم قلب قدْ تعلَّقَ غيرَكُـمْ ويا رحمةً مما يجولُ ويكـدحُ

« وقال له بعض الخلفاء : يا سمنون ، كيف وصلتَ إليه ؟ قال : ما وصلتُ حتى عملتُ ستّة أشياء : أمَتُّ ما كان حيًّا وهو النفْس ، وأحييتُ ما كان ميتًا وهو القلب ، وشاهدتُ ما كان غائبًا وهو الآخرة ، وغيَّبتُ ما كان شاهدًا وهي الدنيا ، وأبقيتُ ما كان فانيًا وهو المراد ، وأفنيتُ ما كان باقيًا وهو الهوىٰ ، واستوحشتُ ممَّا تستأنسون ، وأنِسْتُ مما تستوحشون .

رُوحي إليك بكلِّها قدْ أَجْمعتْ لو أنَّ فيك هلاكَها ما أَقْلعتْ

تبكي عليكَ بكُلِّهـا في كلِّهـا حتى يُقالَ مِـنَ البكـاءِ تقطّعـتْ

وله أيضًا :

لطائفُ بـرِّك مـا تـنـقـضـي وطـاعـاتُ خلْقِكَ ليستْ تضِي

تقـاضَوْك بَـرًّا فـأَوفيتَـهُـمْ ولم يقتضُوا لـكَ مـا يقتضي

ومـا تُبصـرُ العَيْنُ يـا سيِّـدي سـوىٰ ما تحـبُّ وما ترتضـي

وقال :

حرامٌ على قلبٍ تحرمَ بالهـوىٰ يكونُ لغيْرِ الحقِّ فيهِ نصـيبُ

تفرَّدَ فيـهِ فانفـردتُ بحبِّهِ فصـارَ عليَّ شاهـد ورقيـبُ

وقال :

بين المحبِّين سـرٌّ ليـسَ ينسبهُ قولٌ ولا قلمٌ في الخلْق يحكيهِ

وقال :

الحبُّ شيءٌ لطيفٌ ليسَ يُدركُهُ عقـلٌ لإدراكـه عـزٌّ وتـدبيـرُ

لكنَّه في مجاري السـرِّ يعرفُهُ أهلُ الإشـارةِ لا كيْفٌ وتقـديـرُ

وقال :

ألستَ لي عوضًا مني كفىٰ شرفًا فما وراءَكَ لي حظٌّ ومطلوب »[1]

---

(١) عقلاء المجانين للحسن بن حبيب النيسابوري ص١٠٩ – ١١١ . دار البصائر .

* لا تُخْدَعَنَّ فلِلْحبيبِ دلائلُ *

علاماتُ المحبِّ عالي الهِمَّة :

وحتى لا يدَّعي الخلي حُرْقةَ الشجيّ ، فما أسهل الدعوىٰ وما أعزَّ المعنى ؛ فالمحبَّة شجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب واللّسان والجوارح .

قيل للبيضاءِ بنتِ الفضْل : هلْ للمحبِّ للهِ دلائلُ يُعرفُ بها ؟ فقالت : والمحبُّ للسيِّد لا يخفىٰ ، لو جهد المحبُّ للسيِّد أن يخفىٰ ما خَفِي . فقيل لها : صِفيه . قالت : لو رأيت المحبَّ لله - عز وجلَّ - لرأيت عجبًا ؛ من والهٍ ما يقرُّ على الأرض ، طائر مستوحِش ، أنْسُه في الوحدة ، قد مُنِع الراحة ، طعامه الحُبُّ عند الجُوع ، وشرابُه الحُبُّ عند الظمأ ، لا يملُّ من طول الخدمة لله تعالى .

قال أبو تراب النخشبي :

لا تُخْدَعَنَّ فللحبيبِ دلائلُ ... ولديهِ من تُحَفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تنعُّمُهُ بمرِّ بلائِهِ ... وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنْعُ مِنهُ عطيَّةٌ مقبولةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجِلُ
ومِنَ الدلائل أنْ ترىٰ مِن عزمِهِ ... طوْعَ الحبيبِ وإنْ ألحَّ العاذِلُ
ومِن الدلائل أن يُرىٰ متبسِّمًا ... والقلبُ فيهِ مِنَ الحبيبِ بلابلُ
ومِن الدلائل أنْ يُرى متفهِّمًا ... لكلامِ مَن يحظىٰ لديهِ السائلُ
ومن الدلائل أنْ يُرىٰ متقشِّفًا ... متحفِّظًا من كلِّ ما هو قائلُ

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أنْ تراه مُشَمِّرًا ... في خِرقتيْن على شطوط الساحلِ
ومن الدلائل حزنُهُ ونحيبُه ... جوْفَ الظلامِ فما لهُ من عاذِلِ
ومن الدلائل أن تراهُ مسافِرًا ... نحوَ الجهادِ وكلِّ فعْلٍ فاضلِ

ومنَ الدلائلَ زهدُه فيما يرىٰ   من دار ذل والنعيم الزائـلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ باكيًـا   أن قد رآه على قبيح فعائـل
ومن الدلائل أن تراهُ مُسَلِّمًا   كلَّ الأمور إلى المليكِ العادلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ راضيًا   بمليكِهِ في كلِّ حكْمٍ نازِلِ
ومن الدلائل ضحكهُ بين الورَىٰ   والقلبُ محزونٌ كقلْبِ الثاكِلِ

« قال الله تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل اللهِ ولا يخافون لوْمةَ لائم ذلك فضْل اللهِ يُؤْتيهِ مَن يشاءُ واللهُ واسع عليم** ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقال تعالى : ﴿ **قلْ إنْ كنتمْ تحبُّون اللهَ فاتبعوني يحبْبكم اللهُ ويغفر لكم ذنوبَكم واللهُ غفور رحيم** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فوصَفَ اللهُ سبحانه المحبِّين لهُ بخمسةِ أوصاف :

أحدهـا : الذلَّة على المؤمنين ، ولين الجانب ، وخفْضُ الجناح ، والرحمة والرأفة للمؤمنين. فالمحبُّ يذلُّ لمحبوبه ومحبوب محبوبه .

لِعَيْنٍ تفدَّىٰ ألفُ عينٍ وتتَّقىٰ   ويُكْرَمُ ألفٌ للحبيبِ المكرَّمِ

الثاني : العزَّة على الكافرين والشدَّة والغلْظَة عليهم ؛ سئلَ المرتعش : بِمَ تُنالُ المحبَّة ؟ قال : بموالاة أولياء اللهِ ، ومعاداة أعدائه .

الثالث : الجهادُ في سبيل الله ومجاهدة أعدائه باليد واللسان ؛ وذلك من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبَّة . ودعاء الخلق إلى الله وردُّهم إليه .

قال إبراهيم بن أدهم : سمعت رجلَيْن من الزُّهَّاد يقول أحدهما للآخر : يا أخي ، ما ورث أهلُ المحبَّة من محبَّتهم ؟ قال : فأجابه الآخر : ورثوا النظر بنور الله ، والعطف على أهل معاصي الله . قال : فقلتُ له : كيف يعطفُ على

قوم قد خالفوا أمْر محبوبه ؟ فقال : مقتَ أعمالَهم ، وعطف عليهم ، ليزيلهم بالمواعظ عن فِعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار . لا يكون المؤمن مؤمنًا حقًّا حتى يرضى للناس ما يرضاه لنفسه .

الرابع : لا يخافون في الله لوْمة لائم ؛ والمراد أنهم يجتهدون فيما يَرضىٰ به الله من الأعمال ، ولا يبالون بلوْم مَن لامهم في شيء منه ، إذا كان فيه رضا ربِّهم .. ولله درُّ القائل :

وقفَ الهوىٰ بي حيث أنتَ فليسَ لي ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ
أجدُ الملامَة في هَواك لذيذةً ... حبًّا لذكْرك فلْيلمْني اللُّوَّمُ

الخامس : متابعة الرسول ﷺ وطاعته واتباعه في أمره ونهيه ، وليس الشأن أن تُحِبَّ إنما الشأن أن تُحَبَّ ، ولن يحبَّك الله حتى تتَّبعَ رسوله ﷺ .

وقال إبراهيم بن الجنيد : يُقال:علامة المحبِّ علىٰ صِدْق المحبَّة ستُّ خصال :

أحدُها : دوام الذكْر بقلْبِهِ بالسرور بمولاه .

والثانية : إيثاره محبَّة سيِّده على محبَّة نفسه .

والثالثة : الأنس به والاستثقال لكلِّ قاطع يقطعه عنه ، أو شاغل يشغله عنه .

والرابعة : الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه .

والخامسة : الرضا عنه في كلِّ شدَّة وضُرٍّ ينزل به .

والسادسة : اتباع رسوله ﷺ .

قال سهل بن عبد الله التستري : من علامات حبِّ الله حبُّ القرآن ، وعلامة حبِّ الله وحبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ ، وعلامة حبِّ النبي ﷺ حبُّ السُّنَّة ، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة ، ومن علامة حبِّ الآخرة بُغْضُ الدنيا ، وعلامة بُغْض الدنيا أنْ لا يأخذ منها إلا زادًا يبلّغه الآخرة .

ومِن علامة المحبَّة : أنَّ مَن أحبَّ الله تعالى لم يكن شيء عنده آثر من هواه ، ومَن أحبَّ الدنيا لم يكن شيءٌ عنده آثر من هوىٰ نفسه . والمحبَّة منتهىٰ القرْبة والاجتهاد ، ولن يسأم المُحِبُّون من طُول اجتهادهم لله عز وجل ، يحبُّونه ويحبُّون ذِكْره ، ويُحبّبُونه إلى خلقه ، ويمشون بين عباده بالنصائح ، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك أولياء الله وأحبَّاؤه وأهل صفوته ، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه .

والعمل على المحبَّة لا يدخله الفُتُور :

قال أُحد العُبَّاد : إذا سَئِم البطَّالون من بطالتهم ، فلنْ يسأَم محبُّوك من مناجاتك وذِكْرك .

وعن جعفر المحوبي قال : وَليُّ اللهِ المحبُّ لله لا يخلو قلبُه من ذكْر ربِّه ، ولا يسأم من خدمته ، فإذا أعرض أعرض عنه ، وإذا أقبل إلى الله أقبل عليه الله برأفته ورحمته .

وقال الفضيلُ بن عِياض : الحبُّ أفضل من الخوف ؛ ألا ترى إذا كان لك عبدان أحدهما يحبُّك والآخر يخافك ، فالذي يحبُّك منهما ينصحك شاهدًا كنتَ أو غائبًا ؛ بحبِّه لك . والذي يخافُك عسىٰ أن ينصحك إذا شهدتَ ؛ لمَا يخاف ، ويغشُّك إذا غبتَ ولم ينصحك .

وعن ابن زرارة قال : سمعتُ كلاب بن جري يقول لرجل من الطغاوة وهو يُوصيه بطرائق البرِّ ؛ فقال له فيما يقول :

وكنْ لربِّك ذا حبٍّ لتخدِمَهُ ... إنَّ المحبِّين للأحباب خُدَّامُ

قال : فصاح الطغاوي صيحة ، فخرَّ مغشيًا عليه .

وعن أبي عبد الرحمن المغازلي قال : لا يعطىٰ طريقَ المحبَّة غافلٌ ولا ساهٍ . المحبُّ لله عز وجلَّ طائرُ القلب ، كثيرُ الذِّكْر ، متسبِّبٌ إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليه من الوسائل والنوافل ، ذوبًا ذوْبًا وشوْقًا شوْقًا .

وعن محمد بن النضر الحارثي قال : ما كاد يملُّ القربة إلى الله عز وجل محبٌّ لله عز وجل،ولا يكاد يسأم من ذلك .

وقال محمد بن نعيم الموصلي : إنَّ القلب الذي يحبُّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ التعَبَ والنصب لله ، إنه لنْ ينال حبَّ الله بالراحة .

وقال بعض العارفين لرجل : أفْشِ فعْلَ الخيرات ، وتوصَّلْ إلى الله بالحَسنات ؛ فإني لم أرَ شيئًا قطُّ أرضىٰ للسَّيِّد مما يحبُّ ؛ فبادِرْ في محبَّته يُسرع في محبتك . ثم بكى ، فقال له : زدني رحمك الله . قال : الصبر على محبَّة الله وإرادته رأسُ كلِّ برّ . أو قال : كلِّ خير .

واجتمع أحمد بن أبي الحواري وقاسم الجوعي ، وجماعة من الصالحين بعد صلاة العَتَمة ، وقد خرجوا من المسجد إلى بيت رجلٍ قد دعاهم إلى طعام صَنَعه لهم ، فأنشدهم رجلٌ قبل دخول الباب :

علامةُ صِدْقِ المستخصِّين بالحبِّ … بلوغُهُمُ المجهودَ في طاعةِ الرَّبِّ
وتحصيلُ طيبِ القوتِ مِن مُجْتنائِهِ … وإنْ كانَ ذاكَ القوتُ في مُرتقى صعبِ

فلم يزلْ يردِّده وهم قيام حتى أذَّن مؤذِّن الفجر ، ورجعوا إلى المسجد ..

وقد رويت بيتين آخرين مع هذين البيتين ، وهما :

وإمساكُ سوءِ اللفظ عن وَلهِ جِنْسِهِم … وإن ظلموا فالعفو من ذاك بالخطْبِ
أولئكَ بالرحمٰنِ قرَّتْ عُيونُهمْ … وحلُّوا مِنَ الإخلاصِ بالمنزِلِ الرحْبِ

وقال مطر : اجتمعنا ليلةً على الساحِلِ ، ومعنا مسلم أبو عبد الله ؛ فقال رجل من الأزْد :

ما للمُحبِّ سوىٰ إرادةِ حُبِّهِ … إنَّ المُحِبَّ بكلِّ برٍّ يضْرَعُ

قال : فبكى مسلم حتى خشيتُ والله أن يموت .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذرْوَة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمَن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله عز وجل »[١] .

ومِنَ علاماتِ المحبِّ عالي الهمَّة : حبُّ لقاءِ الحبيبِ في دار السَّلام :

قال الثوري وبشر الحافي : لا يكره الموت إلا مريب ؛ لأنَّ الحبيبَ على كلِّ حالٍ لا يكره لقاءَ حبيبه .

وقال البويطي لبعضِ الزهَّاد : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنه توقّف ، فقال : لو كنتَ صادقًا لأحببتَه . وتلا قوله تعالى : ﴿ **فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة: ٩٤]. فقال الرجل : فقد قال النبي ﷺ : « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ »[٢] . فقال : إنما قاله لِضُرٍّ نزَل به ؛ لأن الرضا بقضاء الله أفضل من طلب الفرار منه .

قال ابن رجب : « هِمَمُ العارفين المحبِّين متعلِّقة من الآخرة برؤية الله ، والنظر إلى وجهه في دار كرامته والقرب منه » .

وقال الحسن : لو علِمَ العابدون أنهم لا يرون ربَّهم يوم القيامة ، لمَاتوا . وفي رواية : لذابتْ أنفسُهم .

وقال إبراهيم الصائغ : ما سرَّني أنَّ لي نصفَ الجنة بالرؤية . ثم تلا : ﴿ **كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذ لمَحجُوبون** ﴾ [المطففين : ١٥].

وقال عبد الله بن وهب : لو خُيِّرتُ بين دخول الجنة والنظر إلى ربي عزَّ وجل ؛ لَاخترتُ النظر إليه سبحانه وتعالى .

وقال غزوان الرقَّاشي : في قوله تعالى : ﴿ **ولَدَينا مزيد** ﴾ [قٓ : ٣٥]،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص٥٧ - ٦٨ .

(٢) « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ نزل به » . الحديث متفق عليه من حديث أنس .

قال : ما يسرُّني بحظِّي من المزيد الدنيا جميعُها .

وقال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل المعرفة إلّا هذه الآية الواحدة؛ لَاكتفوا بها ﴿**وجوهٌ يومئذٍ ناضِرة إلى ربِّها ناظرة**﴾ [القيامة : ٢٣] .

وكان رحمه الله يقول : أهل المعرفة دعاؤهم غيرُ دعاء الناس ، وهِمَمُهم من الآخرة غير هِمَمِ الناس .

قال مسمع بن عاصم :

اجتمع بعض العُبَّاد على امرأةٍ من بني عَديٍّ ، يُقال لها : أَمَةُ الجليل بنتُ عمرو ، وكانت منقطِعَة جدًّا من طول الاجتهاد ، فأتوها فقالت : ساعاتُ الوليِّ ساعاتُ شُغُل عن الدنيا ، ليس للوليِّ المستحقِّ في الدنيا من حاجة . ثم أقبلت على كلاب بن جري(١) فقالت : مَن حدَّثك أو أخبرك أنَّ وليَّه له همٌّ غيره ، فلا تصدِّقه .

قال مسمع : فما كنتُ أسمع إلّا التصارُخ من نواحي البيت .

وقال ضيْغم لكلاب : إن حبَّه شغَل قلوب مريديه عن التلذُّذ بمحَبَّة غيره ، فليسَ لهم مع حبِّه لذَّة تداني محبَّته ، ولا يكون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجهه .. فسقط كلاب عند ذلك مغشيًّا عليه .

وكان عبد العزيز بن سليمان العابد يقول في كلامه : أنت أيُّها المحبُّ تزعم أن محبَّتك لله تحقيق ، أما والله لو كنتَ كذلك لضاقت عليك الأرض بما رحُبَتْ حتى تصل إلى رضا حبيبك ، وإلى النظر إلى وجهه في دار كبريائه وعِزِّه .

وقال حبيب الفارسي ليزيد الرقَّاشي : بأي شيءٍ تقرُّ عيون العابدين في

---

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة ٣/٣٨١ .

الدنيا ؟ وبأيِّ شيءٍ تقرُّ عيونهم في الآخرة ؟ فقال : أمَّا الذي تقرُّ عيونُهم به في الدنيا ، فما أعلم شيئًا أقرَّ لعيون العابدين من التهجُّد في ظلمة الليل . وأمَّا الذي تقرُّ أعينُهم به في الآخرة ، فما أعلم شيئًا من نعيم الجنان وسرورها ألذّ عند العابدين ، ولا أقرَّ لعيونهم ؛ من النظر إلى ذي الكبرياء العظيم ، إذا رُفعَتْ تلك الحُجُب ، وتجلَّى لهم الكريم . فصاح حبيبٌ عند ذلك وخرَّ مغشيًّا عليه .

وقال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكْره ، ولا طابت الآخرة إلّا بعفوه ، ولا طابت الجنان إلا برؤيته .

قال محمد بن يحيىٰ الموصلي : سمعتُ نافعًا - وكان من عُبَّاد الجزيرة - يقول : ليتَ ربي جعل ثوابي من عملي نظرةً مني إليه ، ثمَّ يقول لي : يا نافع ، كُنْ ترابًا .

وحُرْمَة الوُدِّ ما لي عنكمُ عِوَضُ ... وليسَ لي في سواكمْ سادتي غَرَضُ
وقد شرطتُ علي قومٍ صحبتهُمُ ... بأنَّ قلبي لكم مِنْ دونهم فَرَضُوا
ومن حديثي بكمْ قالوا به مرضٌ ... فقلتُ لا زال عني ذلكَ المرضُ

ومن علاماتِ المحبِّ : أن يكون مُؤْثِرًا ما أحبَّ اللهُ تعالى على ما يحبُّه ، في ظاهره وباطنه :

فيلزم مشاقَّ العمل ، ويجتنبُ اتباع الهوىٰ ، ويُعرض عن دَعة الكَسَل ، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ومتقرِّبا إليه بالنوافل ، وطالبًا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحبّ مزيد القرب في قلب محبوبه . والحبُّ إذا غلب قمع الهوى ، فلم يبقَ له تنعُّمٌ بغيْر المحبوب .

قال ابن المبارك :

تعصي الإلهَ وأنت تُظهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعمري في الفعالِ بديعُ
لو كانَ حبُّك صادِقًا لَأَطعْتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمنْ يحبُّ مُطيعُ

قال سهل : « علامة الحبِّ إيثارُه على نفسِك » . وليس كل من عمل بطاعة الله عزَّ وجل صار حبيبًا ، وإنما الحبيبُ مَن اجتنبَ المناهي .

قال الفضيل : إذا قيل لك : أتحبُّ الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلتَ : لا . كفرتَ ، وإن قلتَ : نعم.فليسَ وصفك وصْف المحبِّين فاحذرِ المقْتَ .

ومنها : أن يكون مستَهْتَرًا (مُولَعًا) بذكْر الله تعالى ، لا يفترُ عنه لسانُه ولا يخلو عنه قلبُه :

فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره وذكْرِ ما يتعلَّق به .

قال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله .

وقال عروة البارقي : حبُّ الله عز وجل : حبُّ القرآن ، وحبُّ رسول الله ﷺ : العمل بسُنَّته .

إنْ كنتَ تزعُمُ حبِّي ... فلِمْ هجَرتَ كتابي
أمَا تأمَّلْتَ ما فيـ ... ـهِ من لذيذِ خطابي

بعيني مَن تلذَّذ بكلامي :

« قال أحمد بن أبي الحواري : دخلتُ على أبي سليمان فرأيتُه يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيك ؟ قال : ويحك يا أحمد ! إذا جَنَّ الليل ، وخلا كُلُّ حبيبٍ بحبيبه ، افترش أهل المحبَّة أقدامَهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جلَّ جلاله عليهم ، وقال : بعيني مَن تلذَّذ بكلامي ، واستروح إلى مناجاتي ، وإني مطلع عليهم في خَلَواتهم أسمع أنينَهم ، وأرى بكاءهم وحنينَهم . يا جبريل ، نادِ فيهم : ما هذا البكاءُ الذي أراه منكم ، هل أخبرَكم مخبِرٌ أنَّ حبيبًا يعذِّب أحبابه بالنار ، بل كيف يجمل أن أعذِّب قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقوني

فبي حلفتُ إذا وردوا القيامة عليَّ أن أُسفرَ لهم عن وجهي ، وأمنَحهم رياض قدْسي »[1] .

قال ذو النون : لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته ، فلمَّا وقف في محرابه ، واستفتح كلام سيِّده ، خطر على قلبه أنَّ ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين ، فانخلع قلبه ، وذهَل عقلُه ، فقلوبهم في ملكوت السماوات معلَّقة ، وأبدانهم بين يدي الخالق عارية ، وهمومهم بالفِكْر دائمة .

قال ذو النون في وصْف المحبِّين : يتلذَّذون بكلامِ الرحمٰن ، يَنوحون به على أنفسهم ِ نَوْحَ الحمام ، فَرِحين في خَلَواتهم ، لا تفترُ لهم جارِحَةٌ في الخلوات ، ولا يستريحُ لهم قدم تحت ستور الظلُمَات .

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : أن يكون أُنسُهُ بالخلْوَة ومناجاته لله تعالى ومواظبته على التَهجُّد :

فأقل درجات الحبِّ:التلذُّذ بالخَلْوة بالحبيب والتنعُّم بمناجاته ، فمن ذاق من خالِص محبَّة الله ؛ شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه من جميع البَشَر .

قال مطرِّف بن أبي بكْر : المحبُّ لا يسأم من حديثِ حبيبه . وقيل لإبراهيم بن أدهم – وقد نزل من الجبل –: من أين أقبلتَ ؟ قال : من الأُنْس بالله . كانت ريحانةُ إذا قامتِ الليلَ تقول :

قام المحبُّ إلى المؤمَّل قومةً كادَ الفؤادُ من السرور يطيرُ

فلمَّا كان جوفُ الليل سمعتُها تقول أيضًا :

لا تأنسَنَّ بمَنْ توحِشكَ نظرتُهُ فتُمنَعَنَّ مِنَ التذكار في الظُّلَمِ
واجهدْ وكدَّ وكنْ في الليل ذا شجَنٍ يَسقيكَ كأسَ وِدادِ العزِّ والكرمِ

(١) استنشاق نسيم الأُنْس ص٨٧ – ٨٨ .

ثم تنادي : واحزناه ، واسلباه ، فقلتُ : ممَّ ذا ؟

وتقول :

ذهبَ الظلامُ بأُنْسهِ وبإِلْفِهِ ليتَ الظلامَ بأُنْسِهِ يتجدَّدُ

وكانت عابدةٌ في عبد القيس متعبِّدة ؛ إذا جاء الليل تحزَّمت ثم قامت إلى المحراب ، وكانت تقول : المحبُّ لا يسأم مِن خدمة حبيبه .

قال مسلم بن يسار : ما تلذَّذَ المتلذِّذون بمِثْل الخلْوة بمناجاةِ الله عز وجل . عجبتُ للخليقَةِ كيف أَنِسَتْ بسواك !! بل عجبتُ للخليقة كيفَ استنارت قلوبُهم بذكْر سواك .

وكان أبو محمد حبيب العجمي يخلو في بيته ثم يقول : من لم تقرَّ عينه بك ، فلا قرَّتْ ، ومن لم يأنس بك ، فلا أَنِسَ .

قال عابد باليمن : سرور المؤمن ولذَّته في الخلْوة بمناجاة سيِّده عزَّ وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : اتخذِ اللهَ صاحبًا ، ودعِ الناسَ جانبًا .

وقال غزوان : إني أصبتُ راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي .

وقيل : لعبد العزيز بن سليمان الراسبي سيِّد العابدين : ما بقي ممّا يُتلذَّذ به ؟ قال : سرداب أخلو بربِّي فيه .

وقال مسلم العابد : ما يجد المطيعون للهِ لذّة في الدنيا أحلىٰ من الخلْوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحسب لهم من الآخرة من عظيم الثواب أكبرَ في صدورهم وألذَّ في قلوبهم ؛ من النظر إلى الله عز وجل.ثم غُشِي عليه .

وقال الفضيل : طوبىٰ لمنِ استوحش من الناس ، وكان اللهُ أنيسَه .

وقال أبو سليمان : لا أَنَّسَني الله عز وجلَّ إلّا به أبدًا .

وقال رجل لمعروفٍ الكَرْخي : أَوْصِني . قال : توكَّلْ على الله حتى يكون جليسَك وأنيسَك ومَوْضع شكواك .

قال ذو النون : إنَّ من علامات المحبِّين لله : تَرْكُ كلِّ ما يشغله عن الله ، حتى يكون الشغلُ بالله وحده . ثم قال : إنَّ من علامات المحبِّين لله أن لا يأنسوا بسواه ، ولا يستوحشوا معه . ثم قال : إذا سكن حبُّ الله القلبَ أَنِسَ بالله ؛ لأن الله أَجَلُّ في صدور العارفين من أن يُحبُّوا سواه .

وكانت رابعة العدوية تنشد هذيْن البيتيْن :

ولقدْ جعلتُكَ في الفؤادِ مُحَدِّثي وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسـمُ مني للجليـسِ مؤانِـسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسـي

فعجبًا لمن عرف الطريق إلى الله !! كيف يعيش مع غيره ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقِلَها ويسقطَ عنه تعبها :

كما قال ثابت البناني : كابدتُ الليلَ عشرين سنةً وتنعَّمتُ به عشرين سنة .

وقال الجُنيد : علامَة المحِبِّ دوامُ النشاط ، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه .

وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محبٌّ لله من طاعته ، ولو حلَّ بعظيم الوسائل .

قيل لبعض المحبِّين - وقد كان بذَلَ نفسه وماله حتى لم يبقَ له شيء- : ما كان سبب حالِك هذه في المحبَّة ؟ فقال : سمعتُ يومًا محبًّا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبُّك بقلبي كلِّه ، وأنت معرِض عني بوجهك كلِّه ؟ فقال له المحبوب : إنْ كنتَ تحبُّني فأيش تنفق عليّ ؟ قال : يا سيدي ، أُمَلِّكُكَ ما أَمْلِكُ ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلِكَ . فقلت : هذا خَلْقٌ لِخَلْقٍ وعبدٌ لعبدٍ ، فكيف بعبيدٍ لمعبود ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يكون في حبِّه خائفًا متضائلًا تحت الهيْبة والتعظيم :

ولخصوص المحبِّين مخاوف في مقام المحبَّة ليستْ لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشدُّ من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشدُّ منه خوف الحِجَاب ، وأشدُّ منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيّب سيِّدَ المحبِّين رسول الله ﷺ؛ إذْ سمع قوله تعالى: ﴿**أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ**﴾، ﴿**أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾ . وإنما تعظُم هيْبَة البعْد وخوْفه في قلبِ من أَلِفَ القرْب وذاقه وتنعَّم به ، فحديث البعْد في حقِّ المبعدين يُشيِّبُ سماعُه أهلَ القرْب في القرب .

ثم خوف الوقوف وسلْب المزيد .

كُلُّ شيءٍ لكَ مغفو ... رٌ سوىٰ الإعراضِ عنَّا
قدْ غفرْنا لكَ ما فا ... تَ بقِي ما فات منَّا

ثم خوْف السُّلُوِّ أو أنْ يغترَّ بحسْنِ النظر أو غلَبَة الغفلة .

ولله درُّ مَن قال في وصْفِ المحبِّ عالي الهمة :

قريبُ الوجدِ ذو مرمًى بعيدِ ... عنِ الأحرارِ منهم والعبيدِ
غريبُ الوصفِ ذو علْمٍ غريبٍ ... كأنَّ فؤادَه زبرُ الحديدِ
لقد عزَّتْ معانيهِ وجلَّتْ ... عنِ الأبصار إلّا للشهيدِ
يرىٰ الأعياد في الأوقاتِ تجري ... لهُ في كلِّ يومٍ ألفُ عيدِ
وللأحباب أفراحٌ بعيدٍ ... ولا يجدُ السرور لهُ بعيدِ

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : كتمان الحبِّ واجتناب الدعوىٰ :

والتوقِّي من إظهار الوجْد والمحبَّة ؛ تعظيمًا للمحبوب وإجلالًا له ، وهيبةً منه وغيْرةً على سِرِّه .

ولله درُّ ذي النون حين ذُكر عنده الكلام في المحبَّة ، فقال : « اسكتوا عن هذه المسألة ؛ لا تسمعها النفوس فتدَّعيها » .

قال الجنيد :

سَرَتْ بأناسٍ في الغيوبِ قلوبُهُمْ ... فحلُّوا بقُرْبِ الماجدِ المتفضلِ
عراصًا بقربِ اللهِ في ظلِّ قُدْسِهِ ... تجولُ بهمْ أرواحُهُمْ وتنقَّلُ
مواردُهم فيها على العزِّ والنُّهَىٰ ... ومصدرهمْ عنها لِمَا هو أكملُ
تروحُ بعزٍّ مفردٍ منْ صفاتِهِ ... وفي حُلَلِ التوحيدِ تَمشي وترفُلُ
ومِنْ بعد هذا ما تدِقُّ صفاتُهُ ... وما كتْمُهُ أولىٰ لديهِ وأعدلُ
سأكْتُمُ منْ علمي بهِ ما يصونُهُ ... وأبذل منه ما أرىٰ المنْعَ يفضُلُ
على أنَّ للرحمٰنِ سِرًّا يصونُهُ ... إلى أهلِهِ في السِّرِّ والصَّوْنُ أجْمَلُ

ومنها : أن لا يتأسَّف على ما يفوته ممَّا سوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويعظُمُ تأسُّفه على فوت كلِّ ساعة خلَت عنْ ذكْر الله وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغَفَلات بالاستعطاف والتوبة .

قال أحدُ الصالحين : إنَّ لله عبادًا أحبُّوه واطمأنُّوا إليه ، فذهب عنهم التأسُّف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظِّ أنفسهم ، إذْ كان مُلْك مليكِهم تامًّا ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحُسْن تدبيره لهم . قال تعالى : ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ [البقرة : ٢١٦].

كلُّ محبوبٍ سوىٰ اللهِ سَرَفْ ... وهمومٌ وغمومٌ وأَسَفْ
كلُّ محبوبٍ فمنهُ لي خلَفْ ... ما خلا الرحْمٰنَ ما منْهُ خلَفْ
إنَّ للحبِّ دلالاتٍ إذا ... ظهرتْ مِن صاحبِ الحبِّ عُرِفْ
صاحبُ الحبِّ حزينٌ قلبُهُ ... دائمُ الغُصَّةِ مغمومٌ دَنَفْ
همُّه في اللهِ لا في غيرِهِ ... ذاهبُ العقلِ وباللهِ كَلِفْ
أشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنُهُ ... أصفرُ الوجْهِ والطرْفُ ذَرِفْ
دائمُ التَّذكارِ من حبِّ الذي ... حُبُّهُ غايةُ غاياتِ الشَّرَفْ
فإذا أمْعَنَ في الحبِّ لهُ ... وعلاهُ الشوْقُ ممَّا قدْ كُشِفْ

باشَرَ المحرابَ يشكو بثَّهُ ... وأمامَ اللهِ مولاهُ وَقَفْ
قائمًا قُدَّامَهُ منتصِبًا ... لَهِجًا يتلو بآياتِ الصُّحُفْ
راكِعًا طوْرًا وطوْرًا ساجدًا ... باكيًا والدمعُ في الأرضِ يَكِفْ
أوْرَدَ القلبَ علىٰ حبِّ الذي ... فيهِ حبُّ اللهِ حقًّا فعُرِفْ
ثم جالتْ كفُّه في شجرٍ ... يُنبِتُ الحُبَّ فسَمَّىٰ واقتطَفْ
إنَّ ذا الحُبَّ لمنْ يُعنىٰ بهِ ... لا بدارٍ ذاتِ لَهْوٍ وتَرَفْ

وقال بعضهم :

قليلُ العزاء كثيرُ الندمْ ... طويلُ النحيبِ علىٰ ما اجترمْ
جرىٰ دمعُهُ فبكىٰ جَفنُهُ ... فصارَ البكاءُ بدمْعٍ وَدَمْ
يخافُ البيَاتَ لهجْمِ المماتِ ... وفقْدُ الحياةِ يضرُّ السّقمْ
ويُخفي محبَّةَ ربِّ العلا ... فتُظهِرُ أنفاسُهُ ما اكتتمْ
وأسْبَلَ من طرْفهِ عَبْرةً ... علىٰ الصَّحْن من خدِّهِ فانسَجَمْ
وباتَ محاربَ محرابِهِ ... ولمَّا تزلْ قدمٌ عنْ قَدَمْ
فلمَّا تفتتَ أحشاؤُهُ ... منَ الشَّوْقِ رقَّ عليهِ الألَمْ
وكمْ ليلةٍ رامَ فيها المنام ... فصاحَ بِهِ حُبُّهُ لا تَنَمْ
وناحَ علىٰ جسَدٍ ناحلٍ ... أطالَ النحولُ بهِ فانهَدمْ
أنابَ إلى اللهِ مستغفِرًا ... فصارَ لهُ من أعزِّ الخدَمْ

الجُنَيْدُ تاجُ العارفين وسيِّد المحبِّين في عصره :

قال الكتاني : جرتْ مسألة في المحبَّة بمكَّة أيام الموسم ، فتكلَّم فيها الشيوخ ، وكان الجُنَيد أصغرهم سنًّا ، فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقي . فأطرق رأسه ودمعَتْ عيناه ، ثم قال : « عبدٌ ذاهِب عن نفسه ، متصل بذكر ربِّه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوارُ هيبته ، وصفا شربه

من كأسِ وُدِّه ، وانكشف له الجبَّار من أستار غيْبِهِ ، فإنْ تكلَّم فباللَّه ، وإن نطق فعنِ الله ، وإنْ تحرَّك فبأمْرِ الله ، وإن سكت فمع الله ؛ فهو باللهِ ولله ومع الله» . فبكىٰ الشيوخ وقالوا : « ما على هذا مزيد ، جبَرَك الله يا تاجَ العارفين » .

* * *

□ الشَّوْقُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ □

أحِنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً ... وفي الليلِ يدعوني الجَوى فأُجيبُ
وأيَّامُنا تَفنَى وشوقِيَ زائِدٌ ... كأنَّ زمانَ الشوْقِ ليسَ يغيبُ

« أيُّ طيرانٍ يكون أبهى مِن قلوبٍ تطيرُ إلى سيِّدها » :

للهِ قومٌ صعَّدوا أنفاسهم إلى محبوبهم ، لا يخرج ويصعَد نَفَس منها إلا مُتَلَبِّسًا بمحبَّته والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفْعَه لم يدفعوه حتى يُتْبِعوه نفَسًا آخر مثله ، فكل أنفاسِهم بالله وإلى الله ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم .

الشَّوْقُ في الكتابِ والسُّنَّة :

فالشوق يا أخي إلى الله – عز وجل – نسيمٌ يهُبُّ على القلوب يُطيِّب لها السيْر إلى بلاد المحبوب ، إلى الله وإلى الدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] .

قال أبو عثمان الحيري : هذا تعزيَةٌ للمشتاقين ؛ معناه : إني أعلـمُ أنَّ اشتياقَكُم إلَيَّ غالِب ، وأنا أَجَّلْتُ للقائكم أجلًا ، وعن قريب يكون وصولُكم إلى ما تشتاقون إليه .

وقال تعالى : ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾ [طه : ٨٤] .

معناه : شوقًا إليك ، فستَرْه بلفْظِ الرضا .

وقال ﷺ : « اللهمَّ بعلْمِكَ الغَيب ، وقُدرتِكَ على الخلْق ؛ أحيني ما عَلِمْـتَ الحياةَ خيرًا لي ، وتوفَّني إذا عَلمتَ الوفاةَ خيرًا لي . اللهـمَّ وأسألُك خشيتكَ في الغيب والشهادة ، وأسألُك كلمةَ الإخلاص في الرِّضا والغضَب ،

وأسألُك القَصْدَ في الفقر والغِنَى ، وأسألُك نعيمًا لا ينفَدُ ، وأسألُك قُرَّةَ عَيْنٍ لا تنقطع ، وأسـألُك الرِّضا بالقضاء ، وأسألُك بردَ العيـشِ بعدَ الموت ، وأسألُك لذَّةَ النظرِ إلى وجهك والشَّوْقَ إلى لقائكَ ، في غير ضرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّة . اللهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمان واجعلْنا هُدَاةً مُهتدين »[1] .

وقد كان رسول الله ﷺ يفرح بالمطر ويتلقاه بثوبه ، ولمَّا يُسأَل في ذلك يقول : « إنه حديث عهْدٍ بربِّه » . وفي هذا من الشوْق إلى المولى عزَّ وجلَّ ما فيه .

قال بعض الصالحين : قلوب العاشقين مُنَوَّرَة بنور الله ، فإذا تحرَّك اشتياقهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة ، فيقول : هؤلاء المشتاقون إليَّ ، أُشهدكم أنِّي إليهم أشْوَقُ .

قال معاذ بن جبل حين الوفاة : اخنقْ خنْقَك ، فوَعزَّتك إني أحبُّك ، مرحبًا بالموت ، زائر مُغِبٌّ جاء على فاقة .

وإذا كان الشوْق هو سَفَر القلب في طلبِ محبوبِه ونُزوعه إليه ، فهو من أشرفِ المقامات وأجلّها وأعلاها ، ومَن أنكر الشَّوْق فقد أنكر المحبَّة ؛ لأن المحبَّة تستلِذُّ الشوْقَ ، فالمحبُّ دائمًا مشتاقٌ إلى لقاءِ محبوبه ، لا يهدأ قلبه ولا يقرُّ قراره إلا بالوصول إليه . وشوْق المحبِّ لله عز وجل ناتجٌ عن معرفته بالله ؛ فمن عرف الله اشتاق إليه . وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوْق المحبِّ لا نهاية له ، وإذا كان القلب حاضرًا عند ربِّه وهو غير غائب عنه ، لم يوجب له هذا أنْ لا يكون مشتاقًا إلى رؤيته ولقائه ، بل هذا يكون أتمَّ لشوْقه وأعظمَ .

---

(١) حديث صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمَّار بن ياسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٣١٢) .

نـوْعَـا الشَّـوْقِ :

والشوْق نوعان :

الشوق إلى اللقاء (الشوق إلى الجنة) : فهذا يزول باللقاء .

وشوق في حال اللقاء : وهو تعلُّق الروح بالمحبوب تعلُّقًا لا ينقطع أبدًا ، فلا تزال الروح مشتاقةً إلى مزيد هذا التعلُّق ، ولذا يشتدُّ .

ما يرجِعُ الطرْف عنهُ عندَ رؤيتِهِ ... حتى يعودَ إليهِ الطرْفُ مُشتاقَا

ويقول القائل :

وأعظمُ ما يكونُ الشوقُ شوْقًا ... إذا دنتِ الخيامُ مِنَ الخيامِ

ويقول الشاعر :

ومنْ عجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ ... وأسألُ شوقًا عنهمُ وهُمُ معي

وتبكيهُمُ عيني وهمْ في سَوادِها ... ويشكو النَّوىٰ قلبي وهُمْ بينَ أضلعي

مـراتِـبُ الشَّـوْق :

وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : شوْق العابد إلى الجنة ، ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل .

الدرجة الثانية : شوْقٌ إلى الله - عز وجل - زرعه الحبُّ الذي يَنبُت على حافات المِنَنِ ، فعلِق قلبه بصفاته المقدَّسة ، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات برِّه وأعلام فضله .

والشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة ، فإن أطيَبَ ما في الجنة : قرْبُه ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه . نعَمْ الشوْقُ إلى الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جدًّا ، بالنسبة إلى شوْق المحبين إلى رؤية الله تعالى ، بل لا نسبةَ له ألبتة .

وهذا الشوْقَ يَثبُتُ على حافَات المِنَنِ ومطالعةِ إحسان الله ونعمه ، فيعلَقُ

القلبُ بالصفاتِ المختصَّة بالمنن والإحسان ، كالبَرِّ والمنَّانِ والمحسن ، والجواد والمعطي والغفور . هذا الشوْق مشحون بالبِرِّ مغشيٌّ به ، وهو إما برُّ القلب وكَثْرة خيْره ، فهذا القلب أكثر القلوب خيرًا ، فيفعل البِرَّ تقرُّبًا إلى مَن هو مشتاقٌ إليه ، فهو يجيش بأنواع البِرِّ ، وهذا من فوائد المحبَّة ؛ أنَّ قلبَ صاحبِها ينبع منه عيون الخير وتتفجَّر منه يَنابيع البِرِّ .

الدرجة الثالثة : نار أضْرَمها صفوُ المحبَّة ، فنغَّصتِ العيش ، وسكبت السلوة ، ولم يُنَهْنِهَا مَغزًى دون اللقاء .

قال يحيى بن معاذ : عَلَامة الشوق فطَام الجوارح عن الشهوات .

وقال أبو عثمان : علامته حبُّ الموت مع الراحة والعافية ، كحال يوسف لما أُلقي في الجُبِّ لم يقل : « توفَّني » . ولما أُدخل السجن لم يقلْ : « توفَّني » . ولمَّا تم له الأمر والأمْن والنعمة قال : ﴿ **توفَّني مسلمًا** ﴾ .

والشوق لا يزول بالمشاهدة ؛ فإنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلى يوم المزيد أشْوَق ، وكذلك هم أشْوَقُ شيءٍ إلى رؤية مولاهم وسَمَاع كلامه تعالى وهُمْ في الجنة .

كانت عجوز مُغيبة : فقدِم غائبها من السَّفر ، ففرِحَ بِهِ أهلُه وأقاربه ، وقعدَتْ هي تبكي ، فقيل لها : ما يُبكيكِ ؟ قالت : ذكَّرني قُدومُ هذا الفتىٰ يومَ القُدْوم على الله عزَّ وجلَّ .

يا من شكا شوْقَهُ مِنْ طُولِ فرْقَتِهِ   اصبرْ لعلَّك تلقىٰ مَن تحبُّ غدَا

وقال أحدُ الصالحين : « سبحانَ من أخرج قلوبَ المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه ، سبحانَ مَن أوصل الفهْمَ إلى عُقول ذوي البصائر ، فهي لا تعتمِد إلّا عليه ، سبحانَ من أوْردَ حياضَ المودَّة نفوسَ أهلِ المحبة ؛ فهي لا تحنُّ إلا إليه » .

وقال أحدهم : « إن لله – عز وجل – عبَّادًا قَدَحَ في قلوبِهِمْ زَنَدَيِ الشوْقِ والموْقِ[1] ، فأرواحهم تسرح في الملكوت ، وتنظر ما ذُخِر لها في حُجُب الجبروت؛أولئك قوم آووا إلى كَنَفِ محبته ورحمته » .

إلٰهي ، عجبًا للخليقة كيف أنست بسواك .

للهِ ما أحلىٰ زمانًا تسعى فيه أقدامُ الطاعةِ علىٰ أرضِ الاشتياق .

بـدمِ المُحـبِّ يُباع حبُّهـُـمُ   فـمَـنِ الذي يبـتاعُ بالثَّـمَـنِ

يا أخي ، إمَّا أن تحرق قلبك بنارِ النَّدم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب ، وإلَّا فسيُصَاح بك : ﴿ **كلَّا إنَّهم عنْ ربِّهم يومئذٍ لَمحجوبون** ﴾.

شـجَاكَ الفـراقُ فـما تصـنعُ   أتصـبـرُ للبَـيْـنِ أم تجْـزَعُ
إذا كنـتَ تبكـي وهـمْ جيرةٌ   فكيـفَ تكـونُ إذا ودَّعـوا ؟!

أخي ، اعلمْ أن أرواح المحبِّين خرجتْ بالعبادة من أبدان العادات ، وهي في حواصل طيْر الشوْق ، ترفرف على أطلال الوجد ، وتسرح في رياض الألسن . هؤلاء عندهم شغل عن كل شيء سوى محبوبهم ، ما ترىٰ عيونُهم إلا « فبي يسمعُ وبي يُبصر » .

وقال داود الطائي : « إلٰهي ، همُّك عطَّل عليَّ الهموم ، وشوقي إلى النظرِ إليك أَوْثَقَ مني اللَّذَّات ، فأنا في سجنك أيُّها الكريم مطلوب » .

قال ذو النون – رحمه الله –: « إن لله عبادًا ملأ قلوبَهم مِن صفاءِ محْضِ محبَّتِهِ ، وهيَّج أرواحهم بالشوْق إلى رؤيته ، فسبحان من شوَّق إليه أنفسهم ، وأدنى منه هِمَمَهم ، وصفَتْ له صدورهم ، سبحان مَوفِّقهم ومُؤْنسِ وحشَتِهِمْ وطبيبِ أسقامهم . إلٰهي ، لك تواضعتْ أبدانهم منك إلى الزيادة ، انبسطت أيديهم إلى ما طيَّبتَ به عيْشَهم وأدمْتَ به نعيمهم . بك أَنِسَتْ محبَّة المحبِّين ، وعليك معوَّل شوْق المشتاقين » .

(١) الحبُّ .

هم الذين خدموه خدمة الأبرار الذين تدفَّقت قلوبهم ببرِّه وعاملوه ببرِّه .

ذهبتِ الآلام عن أبدانهم لمَّا أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولمَّا أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده .

ويقول - رحمه الله - عن المشتاقين : « هاموا بالشوْق فلا يحطُّون رحالَ الهَمِّ إلا بفِنَاءِ محبوبِهِمْ ، فلو رأيتَهم لَرأيتَ أقوامًا أزعجهم الهَمُّ عن أوطانهم ، فهِمَمُهم إلى مولاهم سائرة ، وقلوبهم إليه من الشوْق طائرة .

فداخَل همومَ القومِ للخلْقِ وحْشةٌ   فصاحَ بهم أُنْسُ الجليلِ إلىٰ الذِّكْرِ
فأجسادهُمْ في الأرضِ هوْنًا مقيمةٌ   وأرواحهم تسري إلى مَعْدِن الفخرِ
فهذا نعيمُ القومِ إنْ كنتَ تبتغي   وتعقِلُ عن موْلاك آدابَ ذوي القدْرِ

سيدي ومولاي :

إذا كانت تحنُّ لكَ المطايا   فماذا يفعلُ القلبُ المشوقُ ؟

* * *

ما عنكَ يشغلني مالٌ ولا ولدٌ   نسيتُ باسمِكَ ذكْر المالِ والولدِ
فلو سفكْتَ دمي في التربِ لانكتَبَتْ   بهِ حروفُكَ لم تنقُصْ ولم تَزدِ

* * *

ارحمْ حَشاشةَ نفسٍ فيكَ قدْ ذهبتْ   قبلَ المماتِ فهٰذا آخرُ الرَّمَقِ
ولو مضىٰ الكلُّ مني لمْ يكنْ عجبًا   وإنَّما عجبي للبعضِ كيفَ بقِي ؟!

* * *

اشتقْ إلى خيامِ اللؤلؤ في الجنةِ .. إلى غرفٍ يُرىٰ ظاهرُها مِن باطنها وباطنها مِن ظاهرها .

تحنُّ الكرامُ لأوطانِها   حنينَ الطيورِ لأوكارِها

وتذكُر فيها عهودَ الصِّبا ... فتزدادُ شوْقًا بتَذْكَارِها

اللهمَّ ارزقنا الشوْق إلى جنتك وإلى لقائك .

* * *

للهِ ما أشدَّ شوقَ المشتاقين إلى ديارهم التي طُرِد أبوهم منها :

محَتْ بعدَكُمْ تلكَ العيونَ دموعُها ... فهلْ مِنْ عيونٍ بعدَها نستعيرُها ؟
رحلْنا وفي سرِّ الفؤادِ ضمائرٌ ... إذا هبَّ نجديُّ الصَّبا يستثيرُها
أتنسىٰ رياضَ الغورِ بعدَ فراقها ... وقد أخذَ الميثاقَ منكَ غديرُها
يجعِّدُهُ مَرُّ الشمالِ وتارةً ... يغازِلُهُ كرُّ الصِّبَا ومرورُها
فيا مسرعينَ السيرَ باللهِ بلِّغوا ... رسالةَ مشتاقٍ حواهُ سطورُها
إذا كتبتْ أنفاسُه بعضَ وجْدِها ... علىٰ صفحةِ الذكرىٰ محاهُ زفيرُها
ترفَّقْ رفيقي هلْ بَدتْ نارُ أرضِهِمْ ... أمِ الوجدُ يُذْكي نارَهُ ويُثيرُها ؟
أعِدْ ذكْرَهُمْ فهو الشفاءُ وربَّما ... شفىٰ النفسَ أمرٌ ثم عاد يَضيرُها
سقىٰ اللهُ أيَّامًا مضَتْ وليالِيًا ... تَضوَّعَ رياها وفاحَ عبيرُها

ويقول آخر :

وما تلوَّم جسمي عنْ لقائكُمُ ... إلّا وقلبي إليكمْ شَيِّقٌ عَجِلُ
وكيفَ يقعُدُ مشتاقٌ يحرِّكُهُ ... إليكُمُ الحافزانِ : الشوْقُ والأمَلُ
فإن نهضْتُ فما لي غيركمْ وطرٌ ... وإنْ قعدتُ فما لي غيركمْ شُغلُ
وكمْ تعرَّضَ لي الأقوامُ بعدكُمُ ... يستأذنونَ علىٰ قلبي فما وصلوا

أبو الدرداء المشتاقُ إلى ربِّه :

« كان رضي الله عنه يقول : أحبُّ الموت اشتياقًا إلى ربي ، وأحبُّ الفقرَ تواضعًا لربي ، وأحبُّ المرض تكفيرًا لخطيئتي » .

وعبد الله بن زكريا[(١)]: يتمنَّى الموتَ شوْقًا إلى ربِّه :

قال رحمه الله : لو خُيِّرتُ بين أنْ أعيش مائةَ سنة في طاعة الله، أَوْ أُقبَضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ لَاخترتُ أن أُقْبضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ شوقًا إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الصالحين من عباده .

وقال محمد بن زياد : اجتمع رجالٌ من الأخيار - أو قال : من العلماء والعُبَّاد - وذكروا الموت ، فقال بعضهم : لو أتاني آتٍ ، أو ملكُ الموت ، فقال : أيُّكم سَبَقَ إلى هذا العمودِ ، فوضَع يدَه عليه ؛ لمَات - لرجوتُ ألَّا يسبقني إليه أحدٌ منكم؛شوْقًا إلى الله جلَّ وعلا .

وكان (**أبو عبد ربِّ الزاهد**) يقول : لو أنه قيل : مَن مسَّ هذا العمودَ لَمات ؛ لَسرَّني أنْ أقوم إليه ؛ شوقًا إلى لقاء الله ورسوله .

وقال أبو عتبة الخولاني : كان إخوانُكم لقاءُ اللهِ أحبُّ إليهم من الشَّهْد .

قال سفيان : كان بالكوفة رجلٌ متعبِّد من همذان ، فذكروا عنه أنه كان يقول : إذا ذكرتُ القدومَ على الله كنتُ أشدَّ اشتياقًا إلى الموت من الظمآن الشديد ظمؤه ، في اليوم الحارِّ الشديدِ حرُّه ، إلى الشراب البارد الشديد بردُه .

وقال عبيد الله بن محمد التميمي : سمعتُ امرأةً من المتعبِّدات تقول : واللهِ ، لقد سئمتُ من الحياة ، حتى لو وجدتُ الموتَ يُباعُ لاشتريته ؛ شوْقًا إلى لقاء الله وحبًّا للقائه . قال : فقلت لها : أَفَعَلَى ثقةٍ أنتِ من عملك ؟ قالت : لا ، ولكن لحبِّي إيَّاه ، وحُسْن ظني به ؛ أَفَتَراهُ يعذِّبني وأنا أحبُّه ؟! .

وكان (**أبو عبد الله النباجي**) يقول في مناجاته : « إنك لَتعلم أنَّك

---

(١) عبد الله بن أبي زكريا ، وقيل : « ابن زكريا الخزاعي ؛ ثقة صاحبُ غزوٍ ، وكان من فقهاء دمشق ، روى عن أمِّ الدرداء وعبادةَ بن الصامت » .

لو خيَّرتني بين أن تكونَ لي الدنيا منذُ خُلقَتْ أتنعَّمُ فيها حلالًا ، ولا أُسأل عنها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة - لَاخترتُ أن تخرج نفسي الساعة . ثم قال : إلا تحبّ أن تلقى مَن تطيع ؟! » .

الفتح بن شخروف : طال شوْقي إليك فعجّلْ قدومي عليك :

صحِبَ رجلٌ الفتح بن شخروف بن داود ثلاثين سنة . قال : فلمْ أره رفع رأسه إلى السماء ، إلّا مرّة واحدة ؛ رفع رأسه وفتح عينيه ونظر إلى السماء ، ثم قال : قد طال شوْقي إليك ، فعجِّلْ قدومي عليك .

فتح الموصِلي : المشتاقُ الصادِق :

وقال فتح الموصلي في يومِ عيد أضحى: قد تقرَّب المتقرِّبون إليك بقربانهم، وأنا أتقرَّب إليك بطول حزْني . يا محبوب ، لِمَ تتركني في أزقَّة الدنيا محزونًا ؟ ثم غُشي عليه ، وحُمِل فدُفِن بعد ثلاثٍ ، رحمه الله تعالى .

وقال عبد الواحد بن زيد : يا إخوتاه،ألا تبكون شوْقًا إلى الله عز وجل ؟ ألا مَنْ بكى شوْقًا إلى سيِّده ، لم يَحرمه النظر إليه .

وكان أبو عبيدةَ الخوَّاص يمشي في الأسواق ويقول : واشـوقاه إلى من يراني ولا أراه !!

للهِ ما أرفعها وأعلاها من درجة .. الشوق إلى الله !! وما أعلى همَّة صاحبها !!

قال حبيب بن عبيد[1]: «كان دليجة إذا مشى طاشت قدَماه من العبادة، فقيل له: ما شأنك؟ قال: الشوْق. فقيل له: أَبْشِرْ؛ فإنَّ الأَمير قد بعث إلى شيوخ المسلمين ليأْذن لهم. فيقول: ليسَ شوقي إلى ذلك؛ إن شوقي إلى مَن يحثُّها».

(١) انظر ترجمته في الحلية ٦/١٠٢ .

وقال (**عثمان بن صخر العتكي**): طوبى لمحبي الربِّ الذين عبدوه بالفرح والسرور ، والأنس والطمأنينة ، فصاروا الصفوة من الخَلْق ، والخاصَّة من البريّة ، يحنُّون إليه حنين الولْهان ، ويشتاقون إليه شوْقَ مَن لا صبرَ لهم عنه ، قد كُسروا بالخوف ، وروَّحوا بالظفر .

وكانت امرأة من العابداتِ بمكَّة تقول : أو ليس عجبًا أن أكون حيَّة بين أظهُرِكُمْ ، وفي قلبي مِن الاشتياق إلى ربي مثل شُعَل النارِ التي لا تُطفأ ، حتى أصيرَ إلى الطبيب الذي عنده بُرءُ دائي وشفائي ؟!

ورأى أحدهم داودَ الطائيَّ منامًا ، فسمعه يقول :

ما نالَ عبدٌ مـنَ الرحمـٰن منزلةً ... أعلى مِنَ الشوقِ إنَّ الشوْق محمودُ

وقال ذو النون : إذا استحكَمتْ معاني المحبَّة في قلب المؤمن ، سكن بعدها الشوق ، فإذا اشتاقَ أدَّاه الشوْقُ إلى الأُنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأنَّ إلى الله ، فإذا اطمأنَّ كان ليلَه في نعيم ، ونهارَه في نعيم ، وسرّه في نعيم ، وعلانيته في نعيم .

إبراهيم بن أدهم يرى ربّه منامًا :

« قال إبراهيم بن أدهم : قلتُ يومًا : اللهمَّ إن كنتَ أُعطيتَ أحدًا من المحبِّين لكَ ما أسكنتَ به قلوبهم قبل لقائك ؛ فأعطني ذلك ، فلقد أضرَّ بي القلق . قال : فرأيتُه تبارك وتعالى في النوم ، فوقَفني بين يديه ، وقال لي : يا إبراهيم ، أمَا استحييتَ مني ؟ تسألني أن أُعطيك ما يَسكُنُ به قلبُك قبل لقائي ، وهل يسكُن قلبُ المشتاق إلى غير حبيبه ؟! أم هل يستريح المحبُّ إلى غير من اشتاق إليه ؟! قال : فقلتُ : يا ربِّ ، تهتُ في حبِّك فلمْ أدرِ ما أقول »[1] .

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٠٣ .

يا مَنْ شكا شوقه من طُول فُرقتِهِ ... اصبرْ لعلَّكَ تلقىٰ مَنْ تُحِبُّ غدًا
وسِرْ إليه بنارِ الشوْقِ مجتهـدًا ... عسَاك تلقىٰ على نارِ الغرامِ هدىٰ

« قال الجنيد سمعتُ السري يقول : الشوقُ أجلُّ مقامِ العارف ، إذا تحقَّق فيه . وإذا تحقَّق بالشـوقِ ؛ لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشـتاق إليه »[(١)] .

قال ابن القيم : الشوقُ إلى لقاءِ الله : رأس مال العبد ، وملاك أمْره ، وقوام حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه ، وقرَّة عينه .

والراغبون ثلاثة أقسام : راغبٌ في الله ، وراغبٌ فيما عند الله ، وراغبٌ عن الله ؛ فالمحبُّ راغب فيه ، والعامل راغبٌ فيما عنده ، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه ، ومَن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ﴿ **فإذا فرغتَ فانصبْ وإلى ربِّك فارغبْ** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨]، وقال تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ [التوبة : ٥٩].

قال يحيىٰ بن معـاذ : « يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطَره من شيْئيْن : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربِّه » .

عليُّ بن سهل المدائني : أنتَ العليمُ أنَّ الشوْق قد برَّح بي :

« كان علي بن سهل المدائني - رحمه الله - يقوم إذا هدأتِ العيون،فينادي بصوت له محزون : يا من اشتغلتْ قلوب خلْقِه عنه ، بما يُعقبهم عند لقائه ندمًا . ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به . ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرانه ، ثم يُنادي : ليتَ شعري !! سيدي ،

(١) روضة المحبِّين لابن القيم ص٤٣٧ .

إلى متى تحبسني ؟! ابعثني سيِّدي إلى حُسْن وعدك ، وأنت العليم أنَّ الشوق قد برَّح بي ، وطال عليّ الانتظار . ثم يخرُّ مغشيًّا عليه ، فلا يزال كذلك حتى يُحرَّك لصلاة الصبح »(١) .

والحارِثُ بنُ عُمَير مشتاقٌ إلى لقاءِ سيِّده :

« وكان الحارث بن عمير - رحمه الله - يقول إذا أصبح : « أصبحتُ ونفْسي وقلبي مُصِرٌّ على حبِّك سيِّدي ، ومشتاق إلى لقائك ، فعجِّل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل » . فإذا أمسىٰ قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة »(٢) .

قلوبُ العارفينَ لها عُيونُ ترىٰ ما لا يراهُ الناظرونا
وأجنحة تطيرُ بكلِّ شوْقٍ فتأوي عند ربِّ العالمينا

« فبؤْسًا وتعْسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة ، التي لا يهزُّها الشوق طرَبًا ، ولا تتَّقد نارُ إرادتها لذلك رغَبًا ، ولا تبعد عمَّا يصدُّ عن ذلك رهَبًا . تجول حول الحُشِّ ، إذا جالت النفوسُ العُلويَّة حول العرش ، وتندسُّ في الأحجار إذا طارت النفوس الزكيَّة إلى أعلى الأوكار .

فلمْ ترَ أمثالَ الرجالِ تفاوتوا إلى الفضلِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ »

أخي ، أبدان المحبِّين عند أهل الدنيا وقلوبهم عند الحبيب .

وترحل وتحدث عجبًا أن قلبًا سار عن جسمٍ أقامَا

ولله درُّ ذي النون وهو يقول :

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صبابتي ولا رَويتْ مِن صدقِ حُبِّك أوطاري

---

(١) ، (٢) الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق لأبي سعيد الخرّاز ص١١٨، ١١٩ تحقيق : د . عبد الحليم محمود - الناشر : دار الإنسان .

مناي المنىٰ كـلُّ المنـىٰ أنت لي مُنىٰ   وأنت الغِنىٰ كلُّ الغنىٰ عند إقتاري
وأنـتَ مـدىٰ سُـؤلي وغـايـة رغـبتي   وموضع شـكواي ومكنونُ إضماري

فارزقنا اللهمَّ صِدْقَ محبَّتك والشوق إليك .

* * *